

جبري

أبو الفرج الأصبهاني

نوابغ الفكر العربي

١٠

892.71
A2195 YjA

نوابغ الفكر العربي

بقلم شفيق جمبوري

كان من عصره السمع والبصر، روى
وصوّر وألف، وكتابه «الأغاني»
وحده يعدل مكتبة بأجمعها



دار المعارف بيروت

الفصل الأول

عصر أبي الفرج الأصبهاني

١ - الحالة الاجتماعية والفكرية

أشرف أبو الفرج الأصبهاني على عصرين : العصر الثالث والعصر الرابع .
لم يقض في القرن الثالث إلا نصارة صباه ، فقد سلخ فيه من عمره ست عشرة
سنة ، ولكنه قضى في القرن الرابع شبابه واكتماله وشيخوخته ، وقضى هذا كله
في بغداد ؛ وبغداد يومئذ أم البلاد .

ورث العصر الذي عاش فيه أبو الفرج الأصبهاني أضخم ميراث في كل
أفق من آفاق الحياة ، في النواحي المادية والنواحي الفكرية : ورث حضارة
بني العباس ، فمن دخل قصورهم في تلك الأيام ورأى ما اشتملت عليه من
الندامى والقيان والنور والبنفسج والزرجس وفاخر الفرش ومختار الآلات بلغ العجب
منه كل مبلغ . لقد كان الرشيد يصطحب في بعض الأيام فيحضره من جواريه
المغنيات والخدم في الشراب زهاء ألفي بجارية في أحسن زى من كل نوع من
أنواع الثياب والجوهر ، وكان يبعث في بعض الأحيان من يجي له المال من
ناحية الموصل فيجبي له منها مالا عظيما من بقايا الخراج ، فيوافي به باب الرشيد
فيأمر بصرف المال أجمع إلى بعض جواريه ، حتى استعظم الناس ذلك وتحدثوا
به . وكان من عواقب هذا التبذير أن دب السوء في الدولة كلها ، في دار
الخلافة وأطراف البلاد ، فقد كان عمال الخليفة يوجهون إلى دار الخلافة رسلهم
فينفذ لهم رجال الخليفة كتبهم ، فيدفع الرسل الأموال إليهم . وبلغ من استرسال
الخلفاء إلى اللهو أنه لما نعى إسحق إلى المتوكل في وسط خلافته غمه وحزن عليه ،
وقال : ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته . وقد مضى للوائق
قول في هذا المعنى أبلغ من قول المتوكل فقد قال : وإن إسحق لنعمة من نعم

الملك التي لم يحظ بمثلها ، ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يشتري لاشتريتهن له بشطر ملكي !

بلغ اللهو والتبذير في قصور طائفة من بني العباس المبالغ ؛ وإذا أردنا أن نعرف ضخامة تلك القصور والتأنق في بنائها فلنرجع إلى شعر البحري ، فهو وحده يحيي لنا قصوراً حيطانها من زجاج وسقوفها من ذهب ، وبركها من رخام .

ورث عصر أبي الفرج الأصبهاني هذا كله ، ولكنه ورث أيضاً ميراثاً فكرياً أضخم وأجل ، فقد خلّفت له العصور السابقة أعظم ما وصلت إليه عبقرية العرب في النثر والشعر . فالجاحظ مات في العصر الذي ولد فيه أبو الفرج . وإذا ذكرنا الجاحظ فكأننا ذكرنا خلاصة عبقرية العرب بأجمعها . وأبو تمام والبحتري وابن الرومي تركوا شعرهم للعصر الذي نشأ فيه أبو الفرج الأصبهاني ، وهم من هم في ضخامة الشعر ورقة الخيال ودقة الوصف . وقد عاش أبو الفرج في العصر الذي عاش فيه شاعر ملأ الدنيا وشغل الناس وهو المتنبي . وفي الحملة كان ميراث عصر أبي الفرج الأصبهاني عظيماً في كل ناحية من نواحي منظوم القول ومنثوره .

اختمرت اللغة في ذلك العصر فقدّرت على وصف دقائق الحياة وجلالها ، واختمر الشعر فلم يعجز عن وصف أضخم ما بناه الخلفاء من القصور ، واختمر النقد فنشأت آراء النقاد في المتقدمين من الشعراء والمحدثين ، وذهبت الأفهام في هذا المعنى كل مذهب .

٢ - الحالة السياسية

أما من نواحي السياسة وبعض النزعات فقد فتح أبو الفرج الأصبهاني عينيه في بغداد فعاش في عصر بني بويه ، ونادم الوزير المهلب ، وكان كاتباً لركن الدولة ، واتصل بسيف الدولة ، وراسل بني أمية في بلاد المغرب . فن ذكر بني بويه في بغداد ، وبني حمدان في حلب ، وبني أمية في الأندلس نعرف وجهة العصر الذي عاش فيه أبو الفرج الأصبهاني ، فقد عاش في عصر

غلبت فيه نزعات شتى : نزعة فارسية في بغداد وما وراءها ، ونزعة قومية في حلب ، ونزعة أموية في بلاد المغرب ؛ ولا بدّ في غلبة النزعة الفارسية من نشوء الشعوبية ، فقد نشأت الشعوبية في العرب ، وكان ههما الأكبر الطعن على العرب في كل مذهب من مذاهبها : طعنت في خطباء العرب بأمور كثيرة فلم تجد للعرب فضلاً في خطبها وعقولها وحكمها وحروبها وآلات هذه الحروب ، ولم تنظر إليهم إلا نظرتها إلى رعاة إبل وغنم قد جفا كلامهم ، وغلظت مخارج أصواتهم ، وساءت ما كلهم وخشنت ملابسهم ، والخلاصة أن همّ الشعوبية الأكبر كان تهديم سلطان العرب في كل ناحية من النواحي : في الدين والسياسة والعلم والأدب ، فقد تتبعوا العرب في كل شيء وألفوا كتباً في مثالهم حتى تصدّى من العرب من ردّ عليهم وفند مزاعمهم ؛ ولا شك في أن اتساع صدور العرب لجماعة يحاولون تهديمهم في حياتهم ، وسماحهم لهم ببت أفكارهم ، أكبر دليل على حرية الرأي في زمنهم ؛ وليس معنى هذا أن أصحاب الأمر كانوا يسكتون عنهم ، فقد كانت الشعوبية ذنباً من الذنوب لأن الحرية حدوداً إذا تجاوزت هذه الحدود - وخاصة في أمور قومية - فقد تؤدي إلى ذهاب السلطان ، ولكن على الرغم من تعقب الشعوبية فقد استطاعت أن تنشر دعوتها وتبث أفكارها وتشغل العرب بالرد عليها .

وكما نشأت الشعوبية في بعض آفاق الدولة فقد نشأت النزعة القومية في آفاق ثانية ، وأعني بها حلب وصاحبها سيف الدولة ، ومن رجع إلى شعر المتنبّي في سيف الدولة تحققت عنده هذه النزعة ؛ وقد كانت النزعة القومية مذهب طائفة من الشعراء الذين تغنّوا بسيف الدولة كالسري وأبي فراس وابن نباتة ، فإن شعرهم لم يكد يخلو من ذكر العرب والإشادة بهم ؛ على أن الحرب التي كانت تدور بين المسلمين والروم قد صبغت بصباغ ديني ، فكان ملك الروم إذا غزا بلاد المسلمين يجهز رجاله بالصليب الأحمر ، وكان شعراء العرب يومئذ يذهبون في بعض شعرهم مذاهب إسلامية مجاراة لطبيعة الحرب بين الروم والمسلمين ، إلا أن النزعة الغالبة على شعرهم كانت نزعة قومية .

الفصل الثاني

أبو الفرج الأصبهاني في عصره

١ - حياة أبي الفرج الأصبهاني

أتى أصحاب التراجم على نسب أبي الفرج الأصبهاني ، وحسبنا أن نعرف أن اسمه على بن الحسين بن محمد الأصبهاني ، وأن نسبه يتصل بعباد مناف ، فهو من بني أمية ، من ولد محمد بن مروان بن الحكم .
ولد بأصبهان ، وقد أجمعوا على أن مولده كان سنة أربع وثمانين ومائتين ، ولكنهم اختلفوا في وفاته ، فأكثرهم قال إن وفاته كانت سنة ست وخمسين وثلاثمائة ، وعلى هذا يكون عمره اثنتين وسبعين سنة ؛ وبعضهم قال إنه عاش ثلاثاً وسبعين سنة . وأضافوا إلى ذلك أنه خولط في عقله قبل أن يموت وأصابه الفالج .

نحاول أن نعرف في هذا الفصل شيئاً من نشأته الأولى في داره ، ومن ثقافته وأساتذته وتلاميذه ، ومن أهله الذين نشأ بينهم . فهذه أمور غامضة في أكثر تاريخ أدبائنا ؛ على أن الذين دونوا ترجمة أبي الفرج الأصبهاني قد يزيد عددهم على اثنين وعشرين مؤرخاً ، ولكن للتراجم فناً خاصاً ولم يتقنه في القديم والحديث إلا قليل من الكتاب ، فعلى الكاتب في هذا العصر أن يستخرج أكثر أحوال المؤلفين من مؤلفاتهم وهذا أمر غير يسير .

عاش أبو الفرج في بغداد ، وقد نقل ياقوت في معجم الأدباء عن ابن الصبائي أن دار أبي الفرج الأصبهاني في بغداد كانت واقعة على دجلة في المكان المتوسط بين درب سليمان ودرب دجلة ، وملاصقة لدار أبي الفتح البريدي . وفي الحكاية التي سننقلها في ذكر قذارته ما يصف لنا بعض الوصف كيف كانت عيشته في داره ، فقد كان يشكو الفأر ويأنس بالسنانير حتى

إذا لحق سنوره قوائج كان يحقنه بيده ، وقد دلت على اهتمامه بالسنانير قصيدته في وصف الهر ، وربما كان يجد في صحبة الهر من الوفاء ما لا يجده في صحبة أكثر أصحابه . وستثبت هذه القصيدة في فصل النماذج من آثار أبي الفرج الأصبهاني . والظاهر أنه كانت له عناية خاصة بالحيوان ، فكما وصف الهر فقد رثى ديكاً له كان يألف قربه فحزن عليه حزناً دائماً .

هل تروج وهل كان له ولد ؟

إذا رجعنا إلى قصيدته التي يستميج فيها المهلبى قرأنا فيها الأبيات التالية ^(١) :

وهذا الشتاءُ كما قد ترى	عسوفٌ على قبيح الأثر
يغادى بصر ^(٢) من العاصفا	ت أو دمع ^(٣) مثل وخز الإبر
وسكان دارك ممن أعو	لُ يلقي من برده كل شر
فهذى تحنٌ وهذى تنُّ	وأدمع هاتيك تجرى درر ^(٤)
إذا ما تملطن تحت الظلام	يعلمن منك بحسن النظر
ولا حظن ربعك كالممحلي	ن شاموا البروق وجاء المطر
يؤمنن عودى بما ينتظرن	كما يرتجى آئبٌ من سفر

فربما كان له بنات ، وهذا كل ما نعرف من صدر أمره .

ولكن الغريب أن يشكو هذا الفقر ، على أنه — كما تبين لنا ذلك في كلامنا على عصره — قد اتصل بأعظم زمانه ، في جملتهم سيف الدولة بن حمدان الذي أعطاه ألف دينار على كتاب الأغاني ، وكان من ندماء الوزير المهلبى الخيصين به ، وكانت صحبته له قبل الوزارة وبعدها إلى أن فرق بينهما الموت ، وبلغ من اطراح الكلفة بينهما المبالغ ، ثم كان كاتباً لركن الدولة حظياً عنده محتشماً لديه ، وكان يصنف تصانيفه ويرسلها إلى المستولين على بلاد المغرب من بني أمية ، وكانوا يحسنون جائزته .

(١) « معجم الأدباء » ج ١٣ ص ١٣٥ .

(٢) ريح صر : شديدة البرد .

(٣) الدمق : الريح والثلج .

(٤) الدرر : جمع درة وهي في الأمطار أن يتبع بعضها بعضاً .

وإذا رجعنا إلى كتاب الأغاني استطعنا أن نستخرج من هذا الكتاب الجليل أنماطاً من ثقافة الأسرة التي نشأ فيها أبو الفرج الأصبهاني ومن طبائعه وأخلاقه .

٢٤ - نشأته

٤- نشأ أبو الفرج في بيت يذوق أهله الأدب ويجعلونه أحاديثهم ، وقد أيدت ذلك أخبار وردت في الأغاني^(١) فمن شاء فليرجع إليها فقد كانت بين أهل أبي الفرج الأصبهاني وبين آل المرزبان مودة قديمة وصهر ، وكان ابن المرزبان يحدث والد أبي الفرج بشيء من الشعر على سبيل المذاكرة ومن هذا النوع كانت أحاديث عمه ووالدة عمه .

٥- وكما نشأ في بيت يعنى أهله بالأدب فقد نشأ في بيت يعنى أهله بالغناء ، فقد جاءت في الأغاني أخبار^(٢) تدل على أن والد أبي الفرج طلب الغناء ، وأن عمته كان لها ذوق في الغناء وفي الشعر . ٤

فإذا كان للتربية أثر فقد يجوز أن يكون لتربية أبي الفرج الأصبهاني الأولى أثر غير قليل في انصرافه إلى الأدب وعنايته بالغناء ، فقد كان له باع في الغناء طويل وهذا أمر يؤيده تأليفه فيه . من ذلك رسالته إلى بعض إخوانه في علل النغم ، وقد ذكرها في الأغاني^(٣) . ومن ذلك دخوله في المناظرات والمجادلات والمراسلات والمشافهات التي كانت تجرى بين أئمة المغنين ، وآرائه في هذا المعنى مبثوثة في أضعاف كتاب الأغاني .

٣ - تأثيره وتأثيره

وقد وسّع آثار هذه التربية الأولى الأساتذة الذين تخرج عليهم أبو الفرج الأصبهاني .

(١) « الأغاني » ج ٢٠ ص ١٣١ .

(٢) « الأغاني » ج ٧ ص ١٣٣ .

(٣) « الأغاني » ج ٨ ص ٢٥ .

من هم هؤلاء الأساتذة ؟

روى أبو الفرج عن طائفة جليلة عاشوا بين العصرين الثالث والرابع ،
نعرف منهم ابن دريد وابن الأنباري والحمحي والأخفش ونفطويه والطبري
وابن المزربان وابن قدامة واليزيدي وغيرهم من رجال اللغة والنحو والأدب والشعر
والأنساب والأخبار والحديث والتفسير والتأريخ ؛ ولا شك في أن هؤلاء الأساتذة
أثراً عظيماً في عبقريّة أبي الفرج ؛ وإذا أردنا أن نعرف فضل الأساتذة الذين
حمل أبو الفرج الأصبهاني العلم عنهم فلنسمع رأيهم فيهم ، فقد قال في أخبار
أبي محمد يحيى بن المبارك^(١) : « وآخر من بقي من علماء هذا البيت أبو عبد الله
محمد بن العباس بن محمد بن أبي محمد ، وكان فاضلاً عالماً ثقة فيما يرويه ،
منقطع القرين في الصدق وشدة التوق فيما ينقله ، وقد حملنا نحن عنه وكثير من
طلبة العلم ورواته علماً كثيراً فسمعنا منه سمعاً جماً » .

هذه هي طبقة الأساتذة الذين تخرج عليهم أبو الفرج الأصبهاني ، فقد
سهل علينا أن نعرف طبيعة ثقافته .

إلا أننا على الرغم من تصانيفه التي لم نطلع عليها ، ولا اطلعنا على أكثرها ،
لا نعتمد في كلامنا على عبقريّة أبي الفرج الأصبهاني إلا على كتاب الأغاني
وحده فهو يغنينا عن بقية كتبه .

وكما تخرج أبو الفرج الأصبهاني على أساتذة مشهورين فقد تخرج عليه
فريق من الأدباء منهم شيخ أندلسي قدم من الأندلس لطلب العلم ولزم أبا الفرج ،
وكان أبو الفرج يعظمه ويكرمه ويذكر ثقته ، ومنهم ابن دينار الذي قرأ عليه
جميع كتاب الأغاني ، ومنهم طائفة أخرى أشار إليها الخطيب البغدادي في
تأريخه .

فأبو الفرج الأصبهاني أخذ في الأدب وأعطى ، ومارس الأستاذية ولم
يقتصر على التأليف وحده .

٤ - صورته وأخلاقه

ما هي هيئة أبي الفرج ؟

هذا شيء لم يشر إليه أكثر الذين ذكروا ترجمته ، على أن أبا الفرج الأصهباني في أكثر تراجمه في الأغاني قد وصف هيئة أصحابها وملابسهم وما كلهم ومشاربهم وغير ذلك ، وقد نجد في بعض مواطن من تراجمه وصف هيئة من الهيئات لا نكاد نجد مثيله في هذه الأيام .

إلا أنهم إذا غفلوا عن ذكر هيئته فلم يغفلوا عن الإشارة إلى ملابسه وبعض أخلاقه ، فقد ذكر ياقوت في معجم الأدباء نقلاً عن غيره أنه كان وسخاً قذراً لم يغسل له ثوباً منذ فصله إلى أن قطعه ؛ وكان الوزير المهلبى يحتمل له ذلك لموضعه من العلم ، وأنه كان وسخاً في نفسه ثم في ثوبه ونعله ، حتى إنه لم يكن ينزع دراعة إلا بعد إبلائها وتقطيعها ، ولا يعرف لشيء من ثيابه غسل ولا يطلب منه في مدة بقائه عوضاً ، ورويت في هذا المعنى قصص مختلفة منها :

قال ابن الصبائي : وحدثني جدي أيضاً قال : قصدت أنا وأبو علي الأنباري وأبو العلاء صاعد دار أبي الفرج لقضاء حقه وتعرف خبره من شيء وجدته ، وموقعها على دجلة في المكان المتوسط بين درب سليمان ودرب دجلة ، وملاصقة لدار أبي الفتح البريدي ، وصعد بعض غلماننا لإيذانه بحضورنا ، فدق الباب دقاً عنيفاً حتى ضجر من الدق وضجرنا من الصبر ، قال : وكان له سنور أبيض يسميه يققاً ، ومن رسمه إذا قرع الباب قارع ، أن يخرج ويصيح إلى أن يتبعه غلام أبي الفرج لفتح الباب أو هو نفسه ، فلم نر السنور في ذلك اليوم ، فأنكرنا الأمر وازددنا تشوقاً إلى معرفة الخبر ، فلما كان بعد أمد طويل صاح صائح أن « نعم » ، ثم خرج أبو الفرج ويده متلوثة بما ظنناه شيئاً كان يأكله ، فقلنا له : عققناك بأن قطعناك عما كان أهم من قصدنا إياك . فقال : لا والله يا سادتي ، ما كنت على ما تظنون ، إنما لحق يققاً - يعني سنوره - قولنج ، فاحتجت إلى حقنه ، فأنا مشغول بذلك ، فلما سمعنا قوله ورأينا الفعل في يده ورد علينا أعظم مورد من أمره لتناهيه في القذارة إلى ما لا

غاية بعده ، وقلنا : ما يجوز أن نصعد إلى عندك فنعوقك عن استتمام ما أنت فيه ، وإنما جئناك لتعرف خبرك ، وقد بلغنا ما أردناه وانصرفنا .
وأضافوا إلى هذا النوع من القصص قصة أخرى تتعلق بما كله ، فقد حدث القاضي أبو علي الحسن بن علي التنوخي في كتاب « نشوار المحاضرة » قال : ومن طريف أخبار العادات أني كنت أرى أبا الفرج علي بن الحسين الأصفهاني الكاتب نديم أبي محمد المهلب صاحب الكتب المصنفة في الأغاني والقيان وغير ذلك ، دائماً إذا ثقل الطعام في معدته — وكان أكلهما — يتناول خمسة دراهم فلفلاً مدقوقاً فلا تؤذيه ولا تدمعه ، وأراه يأكل حمصة واحدة أو يصطبغ بمرقعة قدر فيها حمص فيسهرج بدنه كله من ذلك ، وبعد ساعة أو ساعتين يفصد ، وربما فصد لذلك دفعتين ، وأسأله عن سبب ذلك فلا يكون عنده علم منه ، وقال لي غير مرة : إنه لم يدع طبيباً حاذقاً على مرور السنين إلا سأله عن سببه ، فلا يجد عنده علماً ولا دواء ، فلما كان قبل فاجله بسنوات ذهبت عنه العادة في الحمص فصار يأكله فلا يضره وبقيت عليه عادة الفلفل .

هذه حكايات لا نستطيع دفعها إذا وقعت وإذا صح أن بعض شيوخ أبي الفرج كانوا مثله في هذا المعنى وهم نفطويه وجحظة ، فقد يجوز أنه كان يتشبه بهم لشذوذ في عاداته ، ولكن الذي نستعربه أن يكون أبو الفرج الأصبهاني من ندماء الوزير المهلب وهو في شديد تقشفه وعظيم تنطسه ، وأن يحتمل المهلب مثل ما ذكر علي مائدته ، على أننا نعرف في عصرنا هذا عالماً من أجل العلماء وهو الشيخ طاهر الجزائري قد شذّ في أكله وشربه ولبسه عن المؤلف من العادات ولم يبال بذلك وكان العظماء يحتملون ذلك منه .

وكما أشار بعض المؤرخين إلى شذوذ أبي الفرج في أكله ولبسه فقد أشاروا إلى بعض مزاجه وأخلاقه ، فقد قالوا إن الناس في عهده كانوا يحذرون لسانه ويتقون هجاءه ويصبرون في مجالسه ومعاشرته ومواكلته ومشاربته على كل صعب من أمره .

ولكن الأمر الذي لا شك فيه أن أبا الفرج الأصبهاني كان من الظرفاء ، فقد كان يميل إلى النواذر ، نجد الهزل مستفيضاً في كتاب الأغاني ، وظرفه

هذا هو الذى جعل الوزير المهلبى والعظماء يرغبون فى منادمته ، فمن دلائل ظرفه الخبر الآتى (١) :

« قال غرس النعمة : حدثنى أبى قال : كان أبو القاسم الجهنى القاضى — وأظنه من أهل البصرة وتقلد الحسبة بها ومنها عرف أبا محمد المهلبى وصحبه — يشتمل على آداب يتميز بها ، إلا أنه كان فاحش الكذب ، يورد من الحكايات ما لا يعلق بقبول ولا يدخل فى معقول ، وكان أبو محمد قد ألف ذلك منه وقد سلك مسلك الاحتمال ، وكنا لا نخلو من حديثه من التعجب والاستظراف والاستبعاد ، وكان ذلك لا يزيده إلا إغراقاً فى قوله وتمادياً فى فعله . فلما كان فى بعض الأيام جرى حديث النعنع وإلى أى حد يطول فقال الجهنى : فى البلد الفلانى يتشجر حتى يعمل من خشبه السلاليم ، فاغتاظ أبو الفرج الأصهبانى من ذلك وقال : : نعم عجائب الدنيا كثيرة ، ولا يدفع مثل هذا وليس بمستبدع ، وعندى ما هو أعجب من هذا وأغرب ، وهو زوج حمام راعبى يبيض فى نيف وعشرين يوماً بيضتين فأنزعهما من تحته وأضع مكانهما صنجة مائة وصنجة خمسين ، فإذا انتهى الحضمان تفقس الصنجتان عن طست وإبريق أو سطل وكرنب . فعمنا الضحك ، وفطن الجهنى لما قصده أبو الفرج من الطنر ، وانقبض عن كثير مما كان يحكيه ويتسمح فيه ، وإن لم يخل من الأيام عن الشئ بعد الشئ منه » .

من المؤسف أننا لم نطلع على كتبه كلها ولو وصلت إلينا تصانيفه لاستخرجنا من بعضها صورته ، سواء أكانت كاملة أم كانت غير كاملة ، فمن كتبه كتاب « أدب الغرباء » ، وقد نقل عنه ياقوت فى معجم الأدباء بعض الفصول التى تدل على أن أبا الفرج كان يشرب ، وعلى أنه كان فى أيام الشببية والصبا يألف فتى من أولاد الجند ، ولكن هذه العادة كانت فاشية فى تلك الأيام فلا نستغربها ، فإن أدبنا ملآن من الأشعار التى تدل على الشرب وعلى شئ أكثر من الشرب . ولم يقتصر على هذا كله فقد رماه بعض المؤرخين بالكذب ، فقد قال النوبختى فيه ، وهو من أهل عصره : كان أبو الفرج الأصهبانى أكذب

الناس ، كان يدخل سوق الوراقين وهي عامرة بالدكاكين مملوءة بالكتب فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها . وإذا لم نجد سبيلاً إلى الدفاع عن أبي الفرج الأصماني في اتهامه بالوساخة والقذارة وسلاطة اللسان وما شابه ذلك ، فقد نجد مثل هذه السبيل في إنصافه في بعض أخلاقه .

يسهل علينا أن نتهم رجلاً بالكذب ، ولكن المهم أن نأتي ببرهان على كذبه . يسلخ صاحب الأغاني خمسين سنة في تأليف كتابه ، ويتبع فيه الصدق وشدة التوقى على قدر الإمكان فيجهد نفسه في البحث عن أصح الأخبار والروايات والأحاديث ، ويتبرأ فيها من كل عهدة ، ويحاسب الرواة على الأكاذيب والخطأ والخلط ، يؤاخذهم بكل تحامل وحق وسب وشم وتجهيل ، فيجىء أحد النقاد فيقول فيه إنه أكذب الناس ، دون أن يكلف نفسه بيان موطن من مواطن هذا الكذب ، هذا هو الكلام الذى لا يرضى به منطق ولا خلق ولا وجدان ، كان يجب على الذين نقدوا أبا الفرج ونسبوا الكذب إليه أن يأتوا بالحجة على قولهم وأن يشيروا إلى المواضع التى ظهرت عليها آثار الكذب حتى ينظر العقل في مقادير أقوالهم ، أما أن يجازفوا بحكمهم مجازفة فهذا شئ يذهب بجفاء ، إن الحجة لا ترد إلا بالحجة ، فلا نستطيع أن نهدم بكلمة مجردة ما بناه غيرنا في خمسين سنة ، فضلاً عن أن عملاً مثل هذا العمل لا يخلو من كثير من قلة الإنصاف .

وكما نعتقد صدق أبي الفرج في رواياته ، فقد نعتقد فيه أخلاقاً ثانية ليست أقل من الصدق . نجد في أخلاقه كثيراً من المسامحة والإنصاف وأدب النفس وغير ذلك ، وقد تهمننا معرفة هذه الأخلاق لصلتها القوية برواياته لأن كتاب الأغاني مبني على الروايات والأسانيد .

فمن أخلاقه أنه لا يجعل لأخلاق أهل الفن صلة بنقد فهم ، فإذا ذكر طائفة سيئة من أخلاق بعض الشعراء فإنه يفصلها عن شعرهم ولا يجعل لها تأثيراً في نقد هذا الشعر ، من هذا النحو رواية خبر في كلامه على الأحوص (١)

يغض من أخلاق الأحوص ، وبعد أن روى هذا الخبر قال :
 « وليس ما جرى من ذكر الأحوص إرادة للغض منه في شعره ، ولكننا
 ذكرنا من كل ما يؤثر عنه ما تعرف به حاله من تقدم وتأخر وفضيلة ونقص ،
 فأما تفضيله وتقدمه في الشعر فمتعالم مشهور وشعره ينبئ عن نفسه ويدل على
 فضله فيه وتقدمه وحسن رونقه وتهذبه وصفائه » .

فهذا كلام غاية في نزاهة النقد ، يكاد يكون المثل الأعلى في هذا الباب ،
 وخاصة في عصر مثل عصرنا تعود أكثر الناس فيه أن يكون حكمهم على رجل
 من رجال الفن مبنياً على قدر محبتهم إياه أو بغضهم له ، ينظرون إلى من قال
 لا إلى ما قيل ، فيطمسون الحسنات وينقرون عن السيئات .

وقد نجد مثل نزاهة هذه الأخلاق في مواطن كثيرة من كتاب الأغاني ،
 نكتفي بالإشارة إليها تفادياً من التطويل . من ذلك كلامه على أبي تمام ، ودفاعه
 عن ابن المعتز ، وإنصافه لكعب بن الأشرف على يهوديته .

هذا أكثر ما نعرفه عن حياة كاتب سنجد أنه انفرد بنوع من الموضوعات
 لم ينفرد به غيره من الكتاب .

٥ - مشاركته في أحوال عصره

١ - التشيع والقومية

اتصل أبو الفرج الأصماني بملوك ووزراء كانت نزعاتهم متباينة ، فساير
 دولة أصلها فارسي ومذهبها الشيعة وهم بنو بويه ، وملكاً نزعتهم قومية وهو سيف
 الدولة ، ودولة في المغرب نزعتها أموية وهم بنو أمية ، فمن بدائه الأمور أن تظهر
 على تصانيفه آثار العصر الذي عاش فيه ففي كتاب « مقاتل الطالبين » ظهر
 ميل أبي الفرج إلى الشيعة ، وفي كتب أنساب بني عبد شمس وبني شيبان
 والمهالبة وبني تغلب ظهر ميله إلى العرب ، وإن كنا لم نطلع على هذه الكتب ،
 ولكن عناوينها تدل على أن فيها روحاً قومية . ولا شك في أن التصانيف التي
 كان يرسلها إلى المسؤولين على بلاد المغرب من بني أمية كانت تشتمل على
 روح أموية ، وفي كتاب الأغاني ظهر ميله إلى تصوير لهُو الخلفاء وتبذيرهم .

لا بل إلى تصوير الحياة بأجمعها ، وهكذا نجد أن أبا الفرج الأصبهاني قد اشترك في عصره من أكثر نواحيه .

إلا أن أبا الفرج على الرغم من تشيعه لم ينحرف عن الحق في هذا التشيع ، وإذا كنت أتعرض لتشيع أبي الفرج في مثل هذا المقام فإنما أتعرض له للبحث عن آثار تشيعه وعواقبه في أخباره ورواياته وأحاديثه وما شابه ذلك ، فإن الذين ينسبون التشيع إليه لا يقتصرون على مشايعته لعلّى رضى الله تعالى عنه أو لذريته ، وإنما يريدون بذلك أنه غير ثقة في الأخبار التي يرويها عن الذين انحرفوا عن على وحزبه وقتلوه كبنى أمية مثلاً أو كبنى العباس الذين قاتلوا الطالبين .

فإذا كان هذا هو المراد بتشيع أبي الفرج وكنت لا أجد في روايته أثر التعصب في هذا التشيع فقد لزمى أن أفتش في كتاب الأغاني عن المواطن التي ظهر فيها تجرد أبي الفرج في نقل أخبار طائفة من خلفاء بنى أمية ، ولا سيما يزيد بن معاوية ، فإن تشيع أبي الفرج يقتضيه التحامل عليه والغض منه ومن حسناته ، أو الغلو في ذكر سيئاته ، فإذا كان أبو الفرج متجرداً في رواياته المتعلقة ببعض خلفاء بنى أمية فلا شك في أن تشيعه الذي نسب إليه لم يؤثر في هذه الروايات ، ولا طوى من حسنات المنحرفين عن على ، ولا زور سيئات عليهم . معنى هذا كله أنه كان ثقة في أخباره يحاسب ضميره ووجدانه ، يقول الحق على جماعته وعلى عدوه على السواء .

لقد اطلعت على أخبار رواها أبو الفرج في كتاب الأغاني لا تدل على شيء من التعصب على خصوم على ، وهذه الأخبار حجة لنزاهته وإنصافه في التشيع .

كيف ننسب إلى التعصب في التشيع رجلاً يروى عن عبيد الله بن زياد أحسن الأخبار^(١) التي تصور عقله الراجح ورفقه بالرعية وتفصح عن فضائل أبيه زياد ؟ أم كيف ننسب إلى التعصب في التشيع رجلاً يروى عن بنى أمية كلاماً يضعهم في أرفع المواضع^(٢) .

(١) « الأغاني » ج ٢١ ص ٢٥

(٢) « الأغاني » ج ٢١ ص ٩٤

ولم يقتصر أبو الفرج على الإشارة إلى محاسن عبید الله بن زیاد والإشادة بمكارم أخلاق بني أمية على وجه عام ، وإنما خصص بعد التعميم فأشار إلى فضل يزيد بن معاوية ^(١) .

وكما روى أخباراً تتصل بمحاسن يزيد بن معاوية فقد روى أخباراً تتصل بمحاسن هشام ، فقال إن هشاماً لم يكن يشرب ولا يسقي أحداً بحضرته مسكراً ، وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه ^(٢) .

وقد يطول بي الاستشهاد في هذا المعنى ، فلو كان أبو الفرج متعصباً في تشييعه خالياً من روح النزاهة والتجرد لطمس مثل هذه الأخبار في كتاب الأغاني ولكنه كان رجلاً منصفاً يذكر محاسن بني أمية ولا يغفل في بعض الأحيان عن الإشارة إلى آراء الناس السيئة فيهم ، وأعظم من هذا كله فقد روى في كتاب الأغاني خبراً يسيء إلى سيدنا على أكثر مما يحسن إليه .

اتصل أبو الفرج الأصبهاني بعصره من ناحية التشيع فساير دولة في بغداد شعارها التشيع ، وألف كتابه « مقاتل الطالبين » ولكنه لم يتعصب في تشييعه ولم ينحرف عن الحق في رواياته وحكاياته وأحاديثه ^(٣) .

وكذلك ساير دولة نزعتها فارسية ولكنه لم يكن شعوبياً ، فإن سيف الدولة الذي أعطاه ألف دينار على كتاب الأغاني كانت العروبة شعاره ، يدل على ذلك شعر الشعراء الذين أحاطوا به وفي رأسهم المتنبي ، فإن كلمة العرب لا تكاد تخلو قصائدهم منها ، وكتبه التي ألفها في بعض أنساب العرب تدل على هذه النزعة كأنساب بني شيبان وغيرهم ممن تقدم ذكرهم .

لقد نقل أبو الفرج في كتاب الأغاني كثيراً من أخبار البرامكة ، وهي تدل على فرط كرمهم وأدب نفوسهم ، وأى ذنب له في تدوين أخبار تدل على فرط الجود وأدب الخلق ؟ وكذلك ذكر عن عبد الله بن طاهر قصة إذا دلت على شيء فإنها تدل على عفو صدر عن نفس كريمة وخلق سمح .

وكذلك نقل كلاماً لحسان بن ثابت فيه شيء من الموازنة بين شرب جبلة

(١) « الأغاني » ج ٧ ص ١٨

(٢) « الأغاني » ج ٥ ص ١٥٩

(٣) « الأغاني » ج ١١ ص ٢٩

ابن الأيهم وبين شرب جماعة من المسلمين ، أفيلام أبو الفرج إذا أشاد حسان بحلم جبلة في الشرب وبيعه عن الخنى والعردة وإذا ندّد بشرب مسلم من المسلمين لا يشرب ثلاثة أقذاح حتى يصاحب صاحبه ويفارقها وتضرب فيه كما تضرب غرائب الإبل ؟ !

إذا كان أبو الفرج شعوبياً فلماذا روى خبر وقعة ذى قار في كتاب الأغاني^(١) ، التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبى نصرُوا .

عاش أبو الفرج في عصر استفاد فيه التشيع والشعوبية ولكنه كان مجرداً في تشيعه مخلصاً في عروبيته فقد استطاع أن يتملص من آثار هذا العصر في تصانيفه وأن يترفع عما لم يترفع عنه غيره .

ب - النقد والأدب

وإذا استفاضت حرية الحياة في عصره فقد ظهرت آثار هذه الحرية على كتاب الأغاني فتكلم على لهُو الخلفاء وتبذيرهم وترفعهم ، تكلم على أشياء مخيِّفة ، فكان همّه أن يدخل قصور الخلفاء ويسمع بأذنيه ما يتساقطونه من الأحاديث ، ويرى بعينه منازل الجوارى والقيان والمغنيات من قلوبهم ، فكان له نزعة خاصة إلى أشباه هذه الأخبار حتى يعلم الناس بما يجري في قصور خلفائهم وأمرائهم وعمالهم ، وحتى يطلعهم على أمور تذهب بكل هيبة وبكل حرمة ، فإذا كانت غايته ما أشرت إليه فلا شك في أن فضله عظيم ، فقد نبه الأذهان على أمور كانت عنها غافلة ؛ والخلاصة فقد حرّض الناس على حرية الحكم والرأى .

وكما شارك أبو الفرج الأصبهاني عصره من أكثر النواحي فقد شاركه من الناحية الأدبية . ومن رجع إلى آرائه في النقد المبثوثة في أضعاف كتاب الأغاني استطاع أن يدرك مدى هذا الاشتراك ، (فقد كان إماماً من أئمة النقد في الأدب أولع بتتبع الشعراء حتى يعرف مصادر شعرهم ، كما أولع في الحياة بتتبع الخلفاء حتى يعرف أسرار حياتهم ، فقد تعقب أبا العتاهية وأبا نواس

وأبا تمام والبحتري ، ولكنه كان يميل إلى الاعتدال في نقده ويكره الإسراف .
 أما رأيه في قضية القديم والحديث فهو رأى ظاهر ، فقد كان يجري مجرى
 الزمن ولا يحمد على حال ، فهو يعلم أن لكل عصر أطواراً وأن الشعر ينبغي له
 أن يتبع هذه الأطوار ، من ذلك رأيه في شعر ابن المعتز ، فإننا نرى أبا الفرج
 في هذا النوع من النقد صاحب مذهب ، فهو من المجددين الذين يرون لكل
 عصر أحوالاً خاصة في الذوق والشعور ؛ ورأيه في ذلك رأى أكابر رجال الأدب
 واللغة أمثال ابن قتيبة وابن فارس ومن هم في طبقتهم ، فإن رجلاً مثله يعيش في
 عصر زهت فيه حضارة بني العباس لا يمكن أن يعدل عن شعر يشتمل على
 هذه الحضارة إلى شعر يصف البید والمهامه والظبي والظليم والناقة والجمل وأمثال
 هذا كله .

الفصل الثالث

جوانب أبي الفرج الأصبهاني

١ - آثار أبي الفرج الأصبهاني

يتبين لنا من اختلاف الأساتذة الذين تخرج عليهم أبو الفرج الأصبهاني اختلاف الموضوعات التي عالجها ، وقد تستطيع أن ندرك اتساع الآفاق التي جال فيها إذا أضفنا إلى هؤلاء الأساتذة كثرة الكتب التي كان يطالعها ، فقد مرّ بنا أنه كان يدخل سوق الوراقين وهي عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيئته . والظاهر أن الرجل كان له ميل خاص إلى تتبع أنساب القبائل وأخبارها ، وإلى تتبع أخبار المجتمع كأخبار القيان والحمارين والحمارات والغلمان المغنين والحانات وكل ما له صلة باللهو وأشكاله ولا سيما هو الحلفاء والوزراء والعمال ، وقد بحث في تصانيفه عن الشعر والأغاني ؛ أما الشعر فقد جمع منه دواوين أبي نواس وأبي تمام والبحثري ، ولم تخف آثار هذه الثقافة على المتقدمين فقد أشادوا في كلامهم عليه بتصنيفه وأدبه وشعره ، وعالي روايته وحسن درايته ، وأخباره وآثاره ، وأحاديثه المسندة وعلمه بأيام الناس والأنساب ، وحفظه للغة والنحو والمغازي والسير والخرافات ، ومعرفته من آلة المنادمة بشيء كثير مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم والأشربة ؛ وقد ظهرت آثار هذه الثقافة المديدة على تصانيفه التي صنفها ، روى منها ياقوت في « معجم الأدباء » طائفة كبيرة لا بأس بذكرها في هذا المقام ليكون للقارئ رأى في الموضوعات التي عالجها أبو الفرج :

« قال ياقوت : وتصانيفه كثيرة وهذا الذي يحضرنى منها : كتاب الأغاني الكبير ، كتاب مجرد الأغاني ، كتاب التعديل والانتصاف في أخبار القبائل وأنسابها لم أره وبودي لو رأيته ذكره هو في كتاب الأغاني ، كتاب مقاتل

الطالبيين ، كتاب أخبار القيان ، كتاب الإمام الشواعر ، كتاب المماليك الشعراء ، كتاب أدب الغرباء ، كتاب الديارات ، كتاب تفضيل ذى الحجة ، كتاب الأخبار والنوادر ، كتاب أدب السماع ، كتاب أخبار الطفيليين ، كتاب مجموع الأخبار والآثار ، كتاب الحمارين والحمارات ، كتاب الفرق والمعيار فى الأوغاد والأحرار ، وهى رسالة عملها فى هارون بن المنجم ، كتاب دعوة النجار ، كتاب أخبار جحظة البرمكى ، كتاب جمهرة النسب ، كتاب نسب بنى عبد شمس ، كتاب نسب بنى شيان ، كتاب نسب المهالبة ، كتاب نسب بنى تغلب ، كتاب الغلمان المغنين ، كتاب الحصيان عمله للوزير المهلبى فى خصيين مغنيين كانا له . وله بعدُ تصانيف جياذ فيما بلغنى كان يصنفها ويرسلها إلى المستولين على بلاد المغرب من بنى أمية ، وكانوا يحسنون جائزته ، لم يعد منها إلى الشرق إلا القليل والله أعلم .

إلا أنا لم نطلع على هذه الكتب كلها والذي اطلعنا عليه من آثاره بعض قصائد فى كتب التراجم وكتابه « مقاتل الطالبيين » وبعض فصول من كتابه أدب الغرباء : غير أن كتابه الخالد إنما هو كتاب الأغاني وعليه معتمدنا فى معرفة خصائص عبقريته .

إننا نأسف الأسف كله على أنه لم يقع إلينا كتابه « أدب الغرباء » بخذافيه فلم يصل إلينا إلا قليل من فصوله دونها ياقوت فى « معجم الأدباء » ؛ ولو وقع إلينا الكتاب بأجمعه لاستطعنا أن نستخرج منه أشياء كثيرة تتعلق بأبى الفرج الأصبهاني ، فمن الفصل الذى أثبتته ياقوت تبينت لنا طائفة من أحوال أبى الفرج الخاصة .

وإذا لم يصل إلينا من كتاب « أدب الغرباء » الشئ الكثير فقد وصل إلينا من شعر أبى الفرج الأصبهاني ما يجعلنا ندرك منزلة هذا الشعر ، فقد أشار أكثر أصحاب التراجم إلى شاعرية أبى الفرج وكان لكل واحد رأى خاص فيها ، فبعضهم قال إنه كان شاعراً ، وبعضهم قال إن له شعراً يجمع إتقان العلماء وإحسان ظرفاء الشعراء ، وفريق ذكر أنه كان شاعراً محسناً ، وفريق ذكر أن له شعراً جيداً ، إلا أنه فى الهجاء أجود ، إلى آخر هذه الأحكام .

٢ - أبو الفرج الأصبهاني الشاعر

عالج أبو الفرج الأصبهاني الشعر في جملة ما عالجته وقد كانت آفاق الأدب على عهده وقبل أيامه مديدة ، فالأديب ينبغي له أن يحيط من كل شيء بطرف ، وعلى هذه الصورة تصدّى أبو الفرج للشعر .
مال في بعض شعره إلى الصناعة اللفظية التي كانت شائعة في عصره ، من ذلك قوله في المهلب :

ولما انتجعنا عائدين بظله أعان وما عنيّ ومنيّ وما منّا

ولكنه لم يسترسل إلى هذا النحو من الشعر ، فكما غلب عليه الطبع في النثر فقد غلب عليه الطبع في الشعر . أما قولهم إن شعره في الهجاء أجود فهو غير مستقيم من كل الوجوه ، فإن هجاءه يخلو من روح السخرية . ولكن الناحية التي برّز فيها وجود إنما هي ناحية الوصف ، من ذلك رثاؤه لديك له ، فقد صور أبو الفرج الأصبهاني ديكه تصويراً واضحاً كاملاً بفضل عينه الشديدة في الانتباه وفكره البعيد في التعمق ، صورّه تصوير شاعر يعرف كيف يصور وكيف ينظر إلى الأشياء ، صورّ ألوانه ومشيته وبعض أجزائه وصوته وطيّره وطعمه ، واشتملت صورته على كثير من التنسيق والترتيب ، فلم تدخل صورة الديك بعضها في بعض ، ولا ركب بعضها بعضاً ، وأبو الفرج الأصبهاني رزق من محاسن اللغة والفن الشيء الكثير حتى كدنا نرى الديك يزهي بمحاسن ألوانه ، وكدنا نرى خطرانه وميسانه ونسمع صياحه ، يصبّ أبو الفرج اللفظ في مواضعه وينزله في منازل ، وإلى هذا الوضوح في اللغة والغنى في الألفاظ المصورة نستطيع أن نضيف الصفات المحسوسة وخصب التشبيهات في الشعر .

ومن ذلك وصفه للفأر والهر فهو وصاف ماهر ، وفي كتاب الأغاني مواطن كثيرة تدل على براعته في الوصف وعلى إتقانه لفنه ، ولم تعوزه هذه البراعة وهذا الإتيان في شعره نفسه ، فإن عينه لا تغفل عن الألوان ، وأذنه لا تغفل عن الأصوات ، فكما يجد القارئ في قصيدته في رثاء الديك التي سنبتها في فصل

المختار من نماذج آثاره مصداق هذا كله ، فقد يجد في قصيدته في وصف
الهر دليلاً على قدرته على تتبع دقائق الصفات والإمعان فيها ؛ ومن قرأ هذه
القصيدة أحاط علمه بهذه القدرة فقد استوفى من صفات الفأر في خمسة أبيات
ما يعجز النثر عن أمثاله ؛ وكذلك كان استيفاءه لصفات الهر ، وقد تجد في
دقة هذا الوصف روح ابن الرومي نفسه .

٣ - أبو الفرج الأصبهاني الناثر

١ - المؤرخ

وإذا درجنا من أفق الشعر إلى أفق النثر شعرنا بعبقريّة أبي الفرج الأصبهاني ،
وأول كتبه التي شاهدناها كتاب « مقاتل الطالبين » ، فقد شرع فيه وهو ابن
تسع وعشرين سنة ، ذكر في كتابه هذا جملاً من أخبار من قتل من ولد أبي
طالب منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الوقت الذي ابتداء فيه هذا
الكتاب وهو في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة للهجرة ، ومن احتيل في
قتله منهم بسم سقيه وكان سبب وفاته ، ومن خاف السلطان وهرب منه فمات
في تواريه ، ومن ظفر به فحبس حتى هلك في محبسه ، على السياقة لتواريخ
مقاتل من قتل منهم ووفاة من توفي بهذه الأحوال لا على قدر مراتبهم في الفضل
والتقدم ؛ وقد اقتصر في ذكر أخبارهم على من كان محمود الطريقة سديد
المذهب ، لا من كان بخلاف ذلك أو عدل عن سبيل أهله ومذاهب أسلافه
أو كان خروجه على سبيل عبث وإفساد ، وقد جمع في كتابه ما لا يستغنى
عن ذكره من أخبارهم وسيرهم ومقاتلهم وقصصهم .

سلك في كتابه مسالك المحدثين وقد نجد في بعض هذا الكتاب من وصف
الهيئات ما نحتاج إلى مثله في عصرنا هذا ، من ذلك وصف علي بن أبي طالب :

« وكان عليه السلام أسمى مربوعاً ، وهو إلى القصر أقرب ، عظيم البطن ،
دقيق الأصابع ، غليظ الذراعين ، خمش الساقين ، في عينيه لين ، عظيم
اللحية ، أصلع ، نأتى الجبهة . »

ثم نجد طابع أبي الفرج في كتاب « مقاتل الطالبين » كما نجده في كتاب الأغاني ، وأعني بهذا الطابع الاقتصاد في البيان ووضع الألفاظ في مواضعها ووصف الأشياء بحقائق صفاتها ، من ذلك وصف محمد بن القاسم بن علي :

« وما رأيت قط أشدّ اجتهاداً منه ، ولا أعف ، ولا أكثر ذكراً لله عز وجل مع شدة نفس واجتماع قلب ، ما ظهر منه جزع ولا انكسار ولا خضوع في الشدائد التي مرت به ، وإنهم ما رأوه قط مازحاً ولا هازلاً ولا ضاحكاً إلا مرة واحدة » .

وكأنه لما وصف المهلب في الاقتصاد في البيان فقال :

ويقتضب المعنى الكثير بلفظه ويأتى بما تحوى الطوامير في سطر

أشار إلى نفسه في هذا البيت .

تجد طابع الصدق في رواياته على نحو ما نجد مثل ذلك في كتاب

الأغاني ، فإنه إذا نسخ شيئاً من الأخبار من بعض الكتب نبه على ذلك ولم

ينسبه إلى نفسه . من ذلك ما قاله في أخبار محمد بن القاسم بن علي :

« أخبرني بخبره أحمد بن عبد الله بن عمار عن محمد بن الأزهر ونسخت

شيئاً من أخباره من كتاب أحمد بن الحارث الحرّاز » .

وكما نجد طابع الصدق في كتابه فقد نجد فيه طابع التحقيق ، فقد نقل

في فصل خروج أبي السرايا^(١) أخباراً عن جملة من المحدثين منهم : علي بن

محمد بن سلمان النوفلي ، ولما كان يشك في علي بن محمد فقد نبه على أسباب

هذا الشك فقال :

« فربما ذكرت الشيء اليسير منها والمعنى الذي يحتاج إليه لأن علي بن

محمد كان يقول بالإمامة فيحمله التعصب لمذهبه على الحيف فما يرويه ، ونسبه

من روى خبره من أهل هذا المذهب إلى قبيح الأفعال ، وأكثر حكاياته في

ذلك بل سائرهما عن أبيه ، موقوفاً عليه لا يتجاوزه ، وأبوه حينئذ مقيم بالبصرة

لا يعلم بشيء من أخبار القوم إلا ما يسمعه من السنة العامة على سبيل الأراجيف

والأباطيل فيسطره في كتابه من غير علم طلباً لما شأن القوم وقدح فيهم .

فاعتمدت على رواية من كان بعيداً عن فعله في هذا .

وقد يمر القارئ في خلال الكتاب بطرائف من صدق المبادئ ، ولكن الكتاب كله ليس على نمط واحد ، ففي بعضه نقرأ الأخبار فنكاد نجد الحياة تستفيض فيها كلها سواء أكانت تتعلق ببراز أم بموت أم بطراز من المعيشة ، وفي بعضه نقرأ الأخبار وهي تمر بنا مر السحاب وذلك على مقدار شأن الأخبار التي يرويها وعظمة أصحابها وعظمتها نفسها .

ب - الراوية والقصص

إلا أن أثره الخالد على وجه الدهر إنما هو كتاب الأغاني ، وإذا رجعنا إلى مقدمة هذا الكتاب وجدنا فيها الغاية من تأليفه ورأى صاحبه في فائدته وطبيعته وصحة أخباره ونهجه في تصنيفه والباعث على تأليفه والمشقة التي احتملها ، وقد نجد في خاتمة المقدمة ما يدل على ورع المؤلف .

تدل المقدمة على أن أبا الفرج الأصبهاني جمع في هذا الكتاب ما حضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية قديمها وحديثها ، ونسب كل ما ذكره منها إلى قائل شعره ، وصانع لحنه ، وطريقته من إيقاعه ، وإصبعه التي ينسب إليها من طريقته ، واشتراك إن كان بين المغنين ، وقد يتخلل هذا كله شيء كثير من الجدل والهزل والآثار والأخبار والسير والأشعار المتصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها الماثورة وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام .

هذا بعض ما جاءت الإشارة إليه في مقدمة كتاب الأغاني ولكن الكتاب يشتمل على تراجم بعض الشعراء ، وعلى وصف هيئاتهم وملابسهم وما كلهم ومشاربهم في بعض الأحيان ، وعلى أخبار العامة في مقادير عقولها وتدليسها ولغتها ومعتقداتها وتسلطها على الخاصة ، وعلى الكتاتيب حيث وصف لنا أين تعلم الناس ، وكيف كان المسلمون يعاملون طلابهم ويكافئون النابغين منهم ، وكيف كانت حياة الطلاب في الكتاتيب ، وعلى الملاهي كيف كان الناس يقضون لهُوهم ، وما هي أجناس شرايبهم وأنواع زينتهم وهيئات جواربهم ، وعلى دور الناس كيف كانت موائدهم وأوانيتهم وفرشهم وثيابهم ، وعلى قصور الخلفاء كيف كان البناء في الحجاز والشام والعراق وعلى أندية تلك العصور ومطاعمها

وخاناتها وقصاصها ومصوريها ، وعلى عادات المتقدمين في أفراحهم وأحزانهم وتقاليدهم ، وعلى حرية المرأة وثقافتها ، وعلى حرية الناس وعبوديتهم ، وعلى لهو الخلفاء وتبذيرهم ، وعلى مواكب الحج وأمثال هذه الموضوعات .

هذا ما عاجله أبو الفرج الأصبهاني من الموضوعات في كتاب الأغاني ، والثابت أن أبا الفرج لم يقتصر على جمع ما حضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية ، وإنما دخل على الخلفاء والعمال قصورهم في الليل ، فوصف كل ما اتصل به علمه في هذه القصور ، وكشف الغطاء عن أنماط من الحياة لولا معرفتنا إياها لفاتنا كثير من تأريخنا ، حتى رأينا تلك الحياة بأعيننا وسمعنا أخبارها بآذاننا ولمسنا آثارها بأيدينا .

٤ - فن أبي الفرج الأصبهاني

سلك أبو الفرج في كتاب الأغاني مسالك المحدثين فقد كان ينشئ الأخبار بألفاظه ، وإذا لم تكن الأخبار من إنشائه نبه على ذلك ، وقد كان يحرص في هذه الأخبار أشد الحرص على براءة الذمة فيها ، وكان ينقد بعض الرواة الذين نقل الأخبار عنهم : ينبه على أباويلهم ويحقق أخباره وأحاديثه ورواياته ، ويجري في هذا التحقيق على أساليب شتى أثبت على ذكرها في كتاب : « دراسة الأغاني »^(١) والمهم في هذا كله أن أبا الفرج الأصبهاني أحاط بمفردات اللغة فانتخب منها ما يناسب غايته ومذهبه في كتابه ، فقد أحكم فقه اللغة بحيث لا يكاد يستعمل اللفظ إلا في مواضعه ، فأول عنصر من عناصر لغته تفقّه في اللغة ؛ أما العنصر الثاني فإننا نجده في سهولة لغته ، فهو يستعمل من الألفاظ والتراكيب ما لا يزال استعماله شائعاً حتى في العامة ، فكثيراً ما نجد في الأغاني أشباه هذه التراكيب : « هجم الشتاء عليه . . . على بجتي أنا . . . استر علينا . . . » (فإذا كان كتاب الأغاني خالداً فهو خالد لموضوعاته الجلية وللغة التي خلقت لكل العصور .)

لقد جرى أبو الفرج الأصبهاني عصره في تطور اللغة ولم يجمد على حال

من الأحوال فاشتق ألفاظاً جزلة المعاني ، من ذلك استعمال العرسيات في بعض مواضع من كلامه ، فهذا اللفظ يدل على حالة اجتماعية خاصة لا يعبر عنها لفظ آخر ، إنه يدل على الأكل الذي يقدم في الأعراس .

وهذه الحرية في اللغة دفعته إلى حرية ثانية في تسمية الأشياء بأسمائها ، فكثرت في كتاب الأغاني ما نسميه في عصرنا الأدب المجرد ، وقد كان هذا الأدب المجرد كثيراً في كتبنا القديمة .

هذه جملة من خصائص لغة أبي الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني ، أما خصائص فنه فقد كان رأسها الوصف بكلمة واحدة بحيث يتم المعنى ، فهو يستطيع أن يصور حالة من حالات الإنسان بلفظ واحد ، من ذلك : « وأن تكون ضحكة للناس . . . وكان لبّاساً . . . وكان صيتاً . . . » فهو مقتصد في التصوير ، وقد أوتي قدرة على أن يجعل بين الصفة وبين الموصوف صلة وثيقة ، فهو يستعمل الصفة التي تصلح للموصوف خاصة ولا تصلح لكل موصوف ، وقد نجد في ألفاظه وصفاته تناسباً قوياً بينها وبين معانيها وهذا سر العبقرية ، فإذا وصف حالة من حالات الغضب قال : « فتربّد وجهه وجحظت عيناه وهمّ بالوثوب » .

برع أبو الفرج في تراجمه فإذا وصف رجلاً من الرجال نطقت ألفاظه من صدق الوصف ، كما برع في تصوير الحركات والجلسات ، ولم يبرع في وصف الحالات المادية وحدها ، وإنما برع في وصف الحالات النفسية .

أما لغته الشعرية فلم يلجأ فيها إلا إلى الصور التي تقع عليها العين من ذلك قوله : « فحفق كما يحفق الطائر . . . فاضطرب اضطراب العصفور . . . فخيّل إلى أن الشجرة تنطق . . . »

هذا من جهة ومن جهة ثانية فإنه جعل لكل مقام مقالا ، وهذه القاعدة رأس البلاغة ، فهو لم يرو أخباره على وتيرة واحدة وإنما جعل لكل خبر مقاماً خاصاً يروى ما يروى من الأخبار فيعطى كل معنى ما يستحقه من الألفاظ .

وإذا خرجنا من هذا الأفق إلى أفق أوسع وجدنا أبا الفرج الأصبهاني يجري على هذه القواعد نفسها في قصصه ورواياته .

هذه جملة من خصائص لغة أبي الفرج الأصبهاني وفنه في كتاب الأغاني ،
 فأبرز صفة من صفات عبقريته إنما هي الطبع ، فإن هذه السنين الخمسين
 التي سلخها في إنشاء كتاب الأغاني قد صقلت بيانه حتى أصبح أبو الفرج
 مطبوعاً على الكتابة لا يظهر على عبقريته أثر من آثار التكلف ، وإذا خلد
 كاتب لفطنته إلى روح الألفاظ وأسرارها ، ولصبه هذه الألفاظ في قوالها ،
 ولحفة لغته على القلوب والأفهام ، ولإرسال كلامه على سجيته دون شيء من
 التصنع واصفاً ما يذكره من الأشخاص والأشياء بحقائق الصفات ، وازناً كل
 صفة من هذه الصفات بموازينها دون شطط ولا سرف — إذا خلد كاتب لهذه
 الخصائص كلها فأبو الفرج الأصبهاني على رأس الخالدين .

تحليل قصة

عفو أمير (١)

ما هو موضوع النص الذى ندرسه؟ فإن أبا الفرج لا يعنون عادة موضوعاته .

فى أى نوع من الأنواع الأدبية عرض الموضوع ؟

فإذا كان الموضوع قد عرض فى قالب قصة فما هى خصائص هذه القصة ؟

هل كملت القصة ؟ وما معنى كمالها ؟ هل يشعر القارئ بعد الفراغ منها

بحاجة إلى معرفة أشياء ثانية ؟

فإذا كانت القصة قد كملت فما هى أسباب هذا الكمال ؟ هل عرضت

حوادثها فى صورة محسوسة ؟ وهل فسرت هذه الحوادث ؟

ما هو نصيب هذه القصة من الوصف ؟

هل وصف الجيش ؟

هل وصف الحصن إلى آخر ذلك . . .

ما هو نصيبها من الصور ؟

هل تحتل القصة الصغيرة صوراً كاملة طويلة ؟ هل تشتمل على صور

قصيرة ؟

ما هى هذه الصور ؟

هل يمكن استنباط صور أبطال القصة من القصة نفسها ؟

١ - كلام الحصنى .

٢ - كلام الأمير .

* * *

كيف رتبت هذه القصة ؟

١ - العرض :

(١) طالع القصة فى الصفحة ٩٦ من باب المنتخبات .

هل بسطت في العرض أبطال القصة والظروف التي تمت في خلالها
الحوادث ؟

٢ - العقدة :

ما هي الحوادث في هذه العقدة ؟

٣ - الخاتمة :

هل الخاتمة قصيرة أو هي طويلة ؟

٤ - لذة هذه القصة :

هل يشعر القارئ بلذتها من أول الأمر أو اللذة فيها كانت على سبيل
التدرج ؟

* * *

لغة هذه القصة وأسلوبها :

ما هي خصائص هذه اللغة ؟ هل هي محسوسة أو مجردة ؟ ما هي طبائع
الألفاظ المجردة ؟ هل تجد تطوراً في معاني بعض ألفاظ القصة بالنسبة إلى عصرنا ؟
أسلوبها :

هل العبارات مقطعة فيها ؟

ما هي خصائص العبارات المقطعة في القصة ؟

الإيجاز {
الحوار { في القصة

* * *

هذا ما نحاول كشفه على سبيل الإيجاز في تفسيرنا لقطعة من كتاب الأغاني .
لا يعنون أبو الفرج موضوعاته عادة ، فالنص الذي ندرسه ونفسره قد يمكن
أن يكون عنوانه « عفو أمير » ، وقد يمكن أن نجعل هذا العنوان : « المروءة »
لأن في معاملة عبد الله بن طاهر للحصني أخلاقاً رفيعة تشتمل على شيء من
الإنسانية ، ومن جملة معاني المروءة : الإنسانية ، وهي من الألفاظ العامة التي
تختلف معانيها على اختلاف الأذهان التي تعيش فيها أو على اختلاف المواضع
التي تستعمل فيها .

أفرغ أبو الفرج عفو هذا الأمير أو مروءته في قالب قصة ، قد تكون صادقة أو قد يحتمل صدقها ، وقد توخى في رواية قصته وصف مخالقة عبد الله ابن طاهر لمحمد بن يزيد الأموي الحصني ، فالقصة من أولها إلى آخرها محورها هذه المخالقة ، فكأن أبا الفرج يأخذ بيد القارئ من بدء القصة فينتقل به بين مواطنها فلا يزال به . حتى ينبهه على كرم أخلاق عبد الله بن طاهر وعلى رقة شعوره وسعة حلمه وامتداد كرمه .

لا شك في أن هذه القصة قصيرة ، ولكنها كاملة على الرغم من قصرها ، فإن القارئ لا يتردد في موضع من مواضعها ، ولا يستوضح صاحبها أمراً من الأمور ، وإذا كان القارئ لا يتردد فيها ولا يستفهم فهذا يرجع إلى أن حوادثها قد عرضت في أوضح معرض ، وكل حادثة منها مربوطة بعلتها وسببها .

فلماذا باعد الحصني بناته وحرمه واستسلم بنفسه وبكل ما يملك ؟ لأنه من أهل بيت قد أسرع القتل فيهم ، وله بمن مضى أسوة ، ولأنه يثق بأن الرجل إذا قتله وأخذ ماله شفى غيظه ولم يتجاوز ذلك إلى الحرم ولا له فيهنّ أرب . فهذا النمط من التسلسل المنطقي في القصة قد جعل فيها وضوحاً يغني عن كل استفهام واستيضاح .

أما نصيب القصة من الوصف فيكاد يكون لا أثر له ، فلا نجد فيها وصفاً للجيش أو للحصن أو لغير ذلك كوصف المنزل والأكل والشرب . وقد يكون نصيبها من الصور أوفر ، على أن القصة القصيرة لا تحتمل صوراً كاملة ، وهذه طائفة من صورها :

١ - « فرأى بابه مفتوحاً ، ورآه جالساً مسترسلاً » . فهذا الاسترسال خط من خطوط صورة الحصني ، على أن معنى هذه المادة غير واضح ، لأن الاسترسال فيه معنى الانبساط والاستئناس ، وما هو انبساط الحصني في مثل حالته أم ما هو استئناسه ؟

٢ - وهذه صورة ثانية :

« وعلمت أني أخطأت خطيئة حماني عليها نزع الشباب وغرة الحداثة » .

فهذا النزق وهذه الغرّة يوضحان لنا صورة الحصني لما أفرط في سب عبد الله ابن طاهر ، وتجاوز الحد في قبح الرد .

٣ - وهذه صورة الثالثة :

« فوالله ما اتقاه عبد الله إلا بدموعه تجرى على لحيته » . فهذه الدموع التي تجرى على اللحية إنما هي مظاهر من مظاهر رقة الشعور . على أنه لا مجال في قصة صغيرة مثل هذه القصة إلى التعمق في التصوير ، سواء أكان صاحبها يصور الهيئات أم كان يصور الأخلاق . غير أننا على الرغم من اختصار الصور في القصة نستطيع أن نستنبط صور طائفة من أبطالها من كلامهم نفسه .

فن كلام الحصني للأمير عبد الله بن طاهر :
« إن ما قلت لم يذهب عليّ ، ولكني تأملت أمرى وعلمت أنني أخطأت خطيئة حملني عليها نزق الشباب وغرة الحداثة » .

فإذا تأملنا هذا الكلام وجدنا فيه صورة رجل ندم على ما بدر منه ، ثم إذا تأملنا الكلام الذي بعده وهذا هو :

« فإننا أهل بيت قد أسرع القتل فينا ولي بمن مضى أسوة » وجدنا فيه صورة رجل رابط الجأش ، قد أسلم أمره إلى الله تعالى وانتظر يومه غير هيّاب ولا وجل

وكذلك إذا انتقلنا إلى كلام الأمير عبد الله بن طاهر فقد نجد في قوله للحصني :

« وقد أمّن الله تعالى روعتك ، وحقق دمك ، وصان حرمك ، وحرس نعمتك ، وعفا عن ذنبك » .

صورة رجل كريم الخلق ، يحسن إلى من أساء إليه ، ويبالغ في الإحسان . وقد نرى هذه المبالغة في قوله :

« وما تعجلت إليك وحدي إلا لتأمن من قبل هجوم الجيش ، ولئلا يخالط عفوى عنك روعة تلحقك »

فإذا كانت القصة التي نفسرها قليلة الصور فقد نستخرج من بعض كلام

أبطالها طائفة من هذه الصور فيها وصف لأخلاقهم وطبائعهم .
 أما وقد عرفنا هذا كله فقد لزمنا أن نعرف ترتيب القصة . . .
 رتب هذه القصة ترتيباً متقناً ، فقد اشتمل عرضها الوجيز على ذكر أبطال
 القصة وعلى ذكر الظروف التي ستم فيها الحوادث . . .

بدأ أبو الفرج قصته بالإشارة إلى ما وقع في الماضي بين عبد الله بن طاهر
 وبين محمد بن يزيد الأموي ، فتمد قال الأول شعراً فخر فيه بماثر أبيه وأهله ،
 وفخر بقتلهم الأمين ؛ وعارضه الثاني فأفرط في السب وتجاوز الحد في قبح
 الرد ، وتوسط بين القوم وبين بني هاشم فأربى في التوسط والتعصب .
 فكان لا بد من هذه الإشارة الوجيزة في توضيح السبب الذي من أجله
 هرب الحصني من عبد الله لما ولي مصر ورد إليه تدبير الشام . . .
 ولما أشار هذه الإشارة أخذ يوضح بعض ظروف العمل ، فوصف ما فعله
 الحصني فقال :

« فلما ولي عبد الله مصر ورد إليه تدبير أمر الشام ، علم الحصني أنه
 لا يغفل منه إن هرب ، ولا ينجو من يده حيث حل ، فثبت في موضعه ، وأحرز
 حرمه ، وترك أمواله ودوابه وكل ما كان يملكه في موضعه ، وفتح باب حصنه
 وجلس عليه . . . »

في هذا العرض البسيط وقفنا على بطل القصة وعلى ظروف حوادثها . ولا
 شك في أن هذه الحوادث قد اشتبكت بعد هذا العرض ، فكان في اشتباكها
 بدء العقدة .

أيقتل الأمير عبد الله بن طاهر محمد بن يزيد أم يعفو عنه ؟ ! هذا هو
 السؤال الذي يلقيه القارئ على نفسه ، هذا هو الأمر الذي يشغل بال القارئ
 بعد أن عرف ما عرف مما كان بين الرجلين .

في هذا الموطن من القصة نقف حائرين مضطربين لا نعرف عزم الأمير
 ولا الخاطر الذي خطر بباله . واللذة في هذه الحيرة وفي هذا الاضطراب ، على
 شرط واحد ، أن لا يطول بنا الأمر . وقد تمتد بنا الحيرة من عند قول أبي الفرج :
 « فلما شارفنا بلده ، وكنا على أن نصّبّه . . . »

وتنهي بنا عند قول ابن طاهر للحصني :

« أتعرّفني ؟ قال : لا والله ، قال أنا عبد الله بن طاهر . . . »

أنتهى الحيرة فى هذا المقطع ؟ كلا ، لا تنتهى الحيرة فيه ، وإنما تصير إلى مفاجأة ، فإننا نريد أن نعرف بعد قوله : « أنا عبد الله بن طاهر » ، ماذا فعل . . .

ماذا فعل الأمير فى هذا الموقف ؟ ماذا فعل الأمير فى موقف كان فيه الحصنى بين الحياة والموت ؟ هذا أروع أجزاء القصة ، هذا هو الجزء من القطعة الذى تنكشف فيه حيرة القارئ ، ويهدأ فيه اضطرابه .

لم يشأ عبد الله بن طاهر بعد أن قال للحصنى : « أنا عبد الله بن طاهر » أن يقف عند هذا الكلام حرصاً على أمن الحصنى ، وتفادياً من اضطرابه فقال له :

« أمن الله تعالى روعتك ، وحقق دمك ، وصان حرمك ، وحرس نعمتك ، وعفا عن ذنبك » . فلما قال له هذا القول انحلت عقدة القصة ، وأخذ القارئ يتطلع إلى خاتمتها ، وقد انكشفت أخلاق عبد الله بن طاهر فى هذه الخاتمة الانكشاف كاه ، وانكشف كرم هذه الأخلاق ، وأول مظهر من مظاهر هذا الكرم قوله :

« وما تعجلت إليك وحدى إلا لتأمن من قبل هجوم الجيش ، ولئلا يخالط عفوئ عنك روعة تلحقك » .

وما وسع الحصنى بعد أن سمع هذا الكلام اللين إلا البكاء وإلا القيام وتقيل رأس ابن طاهر .

لقد كان أبو الفرج يستطيع أن ينهى قصته فى آخر هذا الكلام الطيب الذى قاله عبد الله بن طاهر ، ولو فعل لمت القصة ، ولكنه أتبع هذا الكلام بعتاب وبطعام وشراب ، ثم بإكرام ، فكأنه أراد من مبدأ القصة حتى منتهاها أن يأتى فى كل جزء من أجزائها بدليل على كرم أخلاق عبد الله بن طاهر .

ولا شك فى أن أبا الفرج قد روى قصته على شكل مستمیل ، فإنه لم يفاجئ القارئ مفاجأة بعفو الأمير ومروءته من أول القصة ، وإنما استدرجه إلى ذلك استدرجاً حتى يبقى ميله إلى معرفة الخاتمة معلقاً .

لا بأس بعد هذا كله بأن ننظر في خصائص لغة هذه القصة وأساليبها .
تصور القطعة التي ندرسها أمراً روحانياً وهو العفو أو المروعة ، ولذلك نجد
فيها بعض الألفاظ المجردة مثل : التدبير ، ونزق الشباب ، وغرة الحادثة ، أو
مثل شنى غيظه ، وأمن روعتك ، وحقق دمك ، وغير ذلك ؛ فالألفاظ المحسوسة
فيها قليلة جداً ، وذلك سببه أن الوصف فيها قليل ، والوصف هو الذى يستلزم
الألفاظ المحسوسة التي تصور الأشياء في حقائق صورها .

وقد نجد بين الألفاظ المجردة في القطعة ما تحول معناه على الأيام مثل
لفظ التدبير ، فإذا رجعنا إلى كتب اللغة للبحث عن معنى التدبير وجدنا فيها
ما يلي : « التدبير ، النظر في عاقبة الأمر كالتدبير » ، ولكن هذه المادة في
العبارة التي استعملت فيها لها معنى يختلف عن معنى كتب اللغة ، إن معناها
الحكم أو السياسة . من هذا يتبين لنا أن حياة الألفاظ في مواضع استعمالها ،
فإذا تقيّدنا بمعنى التدبير المذكور في كتب اللغة فنكاد لا نفهم معنى هذه المادة
في موضع استعمالها في القصة ، فما معنى : « وردّ إليه النظر في عاقبة أمر الشام »
ليس في هذا التفسير شيء من الخطأ ، لأن بين النظر في عاقبة الأمر وبين
سياسة هذا الأمر بعض العلة ، فمن جملة أمور السياسة النظر في العواقب .

فهذا اللفظ « التدبير » ليس له حياة مستقلة ، وإنما استقلاله في الموضع
الذى يستعمل فيه ، ومعناه في موضعه في القصة « الحكم أو السياسة » ، وهكذا
كانوا يفهمون هذه المادة في عصر أبي الفرج ، فإننا نجد في شعر المتنبي في
كافور : « يدبر الملك من مصر إلى عدن » ، أى يسيّر الملك .

وكما تختلف معاني الألفاظ على اختلاف مواضع استعمالها ، فكذلك
تختلف على اختلاف الأذهان التي تعيش فيها ، فالتدبير في كل ذهن له معنى
خاص ، فإذا كان فلان ضيق العيشة وقلنا فيه : إنه يدبر حاله ، أطلقنا على
التدبير في هذا المكان معنى خاصاً فكأننا قلنا : إنه بما أوتي من العقل يستطيع
أن يتصرف في عيشته حتى لا يظهر عليه أثر الضيق .

وكذلك تختلف معاني الألفاظ على اختلاف العصور ، فلا نقول في هذا
العصر : « وردّ إليه تدبير أمر الشام » ، وإنما نقول : « وردت إليه سياسة

الشام ، أو ورد إليه حكم الشام ، أو غير ذلك .
ولا شك في أن اختلاف المعاني في الألفاظ المجردة يجعل لهذه الألفاظ
بعض الغموض ، وقد يقل الغموض عادة إذا لجأ الكاتب إلى استعارات أو
تشبيهات أو مجازات تجعل الأمور محسوسة .

لم يلجأ أبو الفرج في قصته إلى اللغة الشعرية ، وإنما لجأ إلى تقطيع عباراته ،
من هذا القبيل قوله : « لا يفلت منه إن هرب ، ولا ينجو من يده حيث حل . .
فثبت في موضعه وأحرز حرمه . . . » أو قوله : « أمن الله روعتك ، وحقق
دمك ، وصان حرمك ، وحرس نعمتك ، وعفا عن ذنبك . . . »

والأسلوب المقطع هو الذي يصلح للقصص الصغيرة أكثر من غيره ، إن
فيه شيئاً من الخفة والسرعة لانراه في العبارات المديدة التي يضم بعضها إلى بعض
ويتصل بعضها ببعض .

على أنا نجد في هذا الأسلوب المقطع تساملاً في الأفكار متقناً ، وذلك في
قول عبد الله بن طاهر : « وقد أمن الله روعتك ، وحقق دمك ، وصان حرمك ،
وحرس نعمتك ، وعفا عن ذنبك . . . » فإذا دققنا في كل عبارة من هذه
العبارات وجدنا فيها ترتيباً روحانياً غريباً .

لما ثبت الحصني في موضعه ، وأحرز حرمه ، وترك أمواله ، ودوابه وكل
ما كان يملكه في موضعه ، جلس واسترسل ، هكذا صور أبو الفرج ؛ فلما
نزل عنده الأمير عبد الله بن طاهر أحب أن يخرج من حالته التي هو فيها إلى
حال فيها الطمأنينة ، فقال له قبل كل شيء : « أمن الله روعتك » ، فخفف
قلق الحصني ، ثم قال له : « وحقق دمك » ، فأطمأن إلى حياته ، ثم قال له :
« وصان حرمك » فوثق ببقاء أهله ، ثم قال له : « وحرس نعمتك » فلم يخف
على ماله ، ثم قال له : « وعفا عن ذنبك » ، فتحقق عنده أن العقوبة قد زالت
وهكذا نجد أن الطمأنينة قد عادت إليه بحسب حالاته النفسية التي كانت تقلقه
وتشغل باله ، فلو قدمت عبارة من هذه العبارات على عبارة لاختل الترتيب .

ولا ينبغي لنا أن ننسى أن الإيجاز في بعض مواضع هذه القصة والحوار قد
زاد في نفخ الروح فيها ، فالقصة على الإجمال منسجمة ، متناسقة وهذا سر
محاسنها .

الفصل الرابع

منتخبات من آثار أبي الفرج الأصبهاني

١ - أبو الفرج الأصبهاني الشاعر

١ - الشاعر الوجداني

حكاية حال

انحدر أبو الفرج يوماً إلى البصرة وكان غريباً لا يعرف أحداً من أهلها إلا من قد سمع بذكره فاستأجر بيتاً في خان ثم لما خرج من البصرة كتب هذه الأبيات على حائط البيت الذي يسكنه (١) :

الحمدُ لله على ما أرى من صنعتي من بين هذا الورى
أصارني الدهر إلى حالةٍ يعدمُ فيها الضيفُ عندي القرى (٢)
بدلتُ من بعد الغنى حاجةً إلى كلابٍ يلبسونَ الفراءَ
أصبحَ أدمُ الشوقِ لي مأكلاً وصار خبزُ البيتِ خبزَ الشراءِ
وبعد مديكي منزلاً مبهجاً سكنتُ بيتاً من بيوتِ الكرى (٣)
فكيف أنفي لاهياً ضاحكاً وكيف أحظى بلذيقِ الكرى
سبحانَ من يعلم ما خلفنا وبين أيدينا وتحت الثرى
والحمدُ لله على ما أرى وابقطع الخطبُ وزال المرأ (٤)

(١) تجدد ما نروى عنه من شعر في «معجم الأدباء» ج ١٣ و «الأغاني» ج ١

(٢) القرى : طعام الضيف .

(٣) الكرى : بكسر الكاف الإيجار و بفتحها ، : النوم .

(٤) المرأ : متصور المرأ : وهو الجدل والنزاع .

رثاء ديلك

رثى أبو الفرج الأصمباني ديكاً رباه في منزله ، فوجد في هذا الرثاء شاعراً عينه شديدة الانتباه في المعاينة ، وفكره بعيد التعمق ، يعرف كيف يصور وكيف ينظر إلى الأشياء . صور ألوان الديك ومشيمته وبعض أقسامه وصوته وطيرانه فالصورة تكاد تكون كاملة ، اشتركت في تكميلها عين أبي الفرج وأذنه وفه ، اشتملت هذه الصورة على كثير من التنسيق والترتيب ، فلم تدخل صورة الديك بعضها في بعض ، كما اشتملت لغتها على الوضوح والألفاظ الناطقة والصفات المحسوسة والتشبيهات الخصبية :

لهفي عليك أبا النذير لو أنه	دفع المنايا عنك لهف شفيق
وعلى شمائلك اللواتي ما سمت	حتى ذوت من بعد حسن سُموق ^(١)
لما بقعت وصرت علق مضنة	ونشأت نشأ المقبل الموموق ^(٢)
وتكاملت جلُّ الجمال بأسرها	لك من جليل واضح ودقيق
وكُسيت كالطاووس ريشاً لا معاً	متلائماً ذا رونق وبريق
من حُمرة في صُفرة في خُضرة	تخيّلها يغني عن التحقيق
عرّض يجلّ عن القياس وجوهر	لطفت معانيه عن التدقيق
وخطرت ملتحمفاً بُبرد حَبَرْت	منه بديع الوشى كف أنيق ^(٣)
كالجلنارة أو صفاء عقيقة	أو لمع نارٍ أو وميض بروق ^(٤)
أو قهوة تختال في بلورة	بتألق الترويق والتصفيق ^(٥)

(١) سمق النبات : علا و طال .

(٢) بقع من باب خرج بقمماً وهو في الطير سواد وبياض . العلق : النفيس . مضنة : يضمن به . الموموق : المحبوب .

(٣) التحجير : التحسين .

(٤) الجلنار : زهر الرمان . العقيق : خرز أحمر .

(٥) القهوة : الخمر .

وَكَأَنَّ سَالَفَتِيكَ تَبْرُ سَائِلَ وَعَلَى الْمَفَارِقِ مِنْكَ تَاجُ عُقَيْقِ^(١)
 وَكَأَنَّ مَجْرَى الصَّوْتِ مِنْكَ إِذَا نَبَتْ وَجَفَتْ عَنِ الْأَسْمَاعِ بُحُّ حُلُوقِ
 نَائٍ دَقِيقٌ نَاعِمٌ قَرَنْتَ بِهِ نَعْمَ مُؤَلِّفَةٌ مِنْ الْمَوْسِيقِ
 يَزْقُو وَيَصْفِقُ بِالْجَنَاحِ كَمَنْتَشٍ وَصَلَتْ يَدَاهُ النَّقْرَ بِالتَّصْفِيقِ^(٢)
 وَيَمِيسُ مَمْتَطِيًّا لِسَبْعِ دَجَائِحِ مِثْلَ الْمَهَارَى أَحْدَقْتَ بِفَنِيْقِ^(٣)
 فَيَمِيرُنَا مِنْهُمْ بَيَاضًا دَائِمًا رِزْقًا هَنِيئًا لَيْسَ بِالْمَحْجُوقِ
 فِيهِ بَدَائِعُ صَنْعَةٍ وَلَطَائِفُ أَتَقَنَّ بِالْتَهْدِيبِ وَالتَّدْقِيقِ
 خَلْقَانِ مَائِيَّانِ مَا اخْتَلَطَا عَلَى شَكْلٍ وَمُؤْتَلَفِ الْمَزَاجِ دَقِيقِ
 صُنْعٍ يَدُلُّ عَلَى حَقِيقَةِ صَانِعِ لِلْخَلْقِ طَرًّا لَيْسَ بِالْخُلُوقِ
 فَبَيَاضِهَا وَرَقٌ وَتَبْرٌ مُحَّهَا فِي حَقٍّ عَاجٍ بَطَّنَتْ بِدَبِيقِ^(٤)
 يَغْدُو عَلَيْنَا مَنْ طَهَاہُ بِعُجْبِهِ وَيَرْوِحُ بِالْمَشْوَى وَالْمَسْلُوقِ
 نَعْمَ لَعَمْرُكَ لَوْ تَدُومُ هَنِيئَةٌ هَلْ دَامَ رِزْقُ لَامَرَى مَرْزُوقِ
 أَبْكِي إِذَا أَبْصَرْتَ رُبْعَكَ مَوْحِشًا بِتَحَنُّنٍ وَتَأْسَفٍ وَشَهِيقِ
 وَيَزِيدُنِي جَزَعًا لِفَقْدِكَ صَادِحِ فِي مَنَازِلِ دَانٍ إِلَى لَصِيقِ
 قَرَعَ الْفُؤَادَ وَقَدْ زَقَا وَكَأَنَّهُ نَادَى بَيْنَ أَوْ نَعَى شَقِيقِ

(١) السالفة : مقدم الحق .

(٢) زقا يزقو : صاح .

(٣) المهاري : إبل منسوبة إلى مهرة بن حيدان . الفنيق : الفحل المكرم لا يؤذى ولا يركب .

(٤) الورق : الدراهم المضروبة وكنى به هنا عن الفضة . المح : صفرة البيض .

دبيقى : من دبيق ، بلدة بمصر تنسب إليها الثياب .

فتأسف أبدأ عليك مواصل بسواد ليل أوبياض شروق
 وإذا أفاق ذوو المصائب سلوة وتصبروا أمسيت غير مُفِيق
 صبراً لفقدك لا قلى لك بل كما صبر الأسير لشدة ومضيق^(١)
 لا تبعدن وإن نأت بك نية في منزل نأى الحلّ سحق^(٢)

وصف الفأر والهَر

لم يعن أبو الفرج بمراقبة الناس وحدهم وتتبع أخبارهم ، وإنما عني بمراقبة الحيوان أيضاً ولا سيما الحيوان الذى كان يعيش فى داره ، فهو يصف هذا الحيوان وصفاً إذا جاء فى عصرنا هذا مصور ووقف عليه استطاع أن يعيد صورته بريشته ، وهذه براعة أبى الفرج الأصهبانى فى دقة التصوير :

يا لحذب الظهور قصع الرقاب لدقاق الأنياب والأذنان
 خلقت للفساد مذ خلق الخلد ق وللعيش والأذى والخراب
 ناقيات فى الأرض والسقف والحي طان نقباً أعيا على النقاب
 آكلات كل الماء كل لا تأ منها شاربات كل الشراب
 آفات قرض الثياب وقد يع دل قرض القلوب قرض الثياب
 زال همى منهن أزرق تركى السباكين أتمر الجلباب
 ليث غاب خلقاً وخلقاً فمن لا ح لعينيه خاله ليث غاب
 ناصب طرفه إزاء الزوايا وإزاء السقوف والأبواب
 ينتضى الظفر حين يظفر للصي د وإلا فظفره فى قراب

(١) القلى : البغض .

(٢) النية : الوجه الذى يذهب فيه .

لا يرى أخبثيه عين ولا يع لم ما جنتاه غير التراب
 قرطوقه وشقفوه وحلو ه أخيراً وأولاً بالخضاب
 فهو طوراً يمشى بحلى عروس وهو طوراً يخطو على عُناب
 حبذا ذاك صاحباً هو في الصحبة أوفى من أكثر الأصحاب

ج - الشاعر المداح

ميلاد المشتري

رزق المهلبي مولوداً من سرية رومية فقال أبو الفرج يهنئه :

أسعد بمولود أتاك مباركاً كالبدر أشرق جنح ليل مقرر
 سعد لوقت سعادة جاءت به أم حصان من بنات الأصفر^(١)
 متبجح في ذروتي شرف العلا بين المهلب منماه وقصر
 شمس الضحى قرنت إلى بدر الدجى حتى إذا اجتمعا أتت بالمشتري^(٢)

عيد الفطر

وفي عيد من الأعياد يهنئ أبو الفرج الوزير المهلبي وينشده هذه القصيدة :

إذا ما علا في الصدر والنهي والأمر وبشهما في النفع منه وفي الضر
 وأجرى طباً أقلامه وتدققت بديهته كالمستمد من البحر
 رأيت نظام الدر في نظم قوله ومنشوره الرقراق في ذلك النثر

(١) حصان : عفيفة . بنات الأصفر : بنات الروم .

(٢) المشتري : كوكب .

ويأتي بما تحوى الطوامير في سطر^(١)
وقابل هلال الفطر في ليلة الفطر
وأفضل ما ترجوه من أفسح العمر
بطهر ك فيه واجتنابك للوزر
وأثنى به المثني وأطرى به المطرى
إلى الله منها طول درسك والذكر
وبطش كها بالعرف والخير والبر
وقد جاء شوال فشالت نعمة الصيام وأبدلنا النعيم من الضر^(٢)

وضجت حبيس الدن من طول حبسها
وأبرزها من قعر أسود مظلم
إذا ضمها والورد فوه وكفه
وتحسبه إذ سلسل الكأس ناظماً
ولامت على طول التجنب والمجر
كإشراق بدر مشرق اللون كالبر
فلا فرق بين اللون والطعم والنشر
على الكوكب الدررى سبطاً من الدر

(١) الطوامير : الصحائف .

(٢) الحفيظان : الملكان .

(٣) شالت نعمة الرجل : مات .

يا أرض ميدي

لما ولي الوزارة أبو عبد الله البريدي في زمن الراضي بالله قال أبو الفرج في ذلك قصيدة طويلة يهجو فيها أبا عبد الله وهذا مطلعها :

يا سماء اسقطي ويا أرضُ ميدي قد تولّى الوزارة ابنُ البريدي^(١)
 جلّ خطبٌ وحلّ أمرٌ عضالٌ وبلاءٌ أشابَ رأسَ الوليدِ
 هدّ ركنُ الإسلامِ وانتهك الملكُ ومحيّت آثاره فهو مُودي^(٢)
 أخلقت بهجة الزّمانِ كما أنـهـجَ طولُ اللباسِ وشيَ البرودِ^(٣)

أنا الملموم

وله في الهجاء هذان البيتان قالهما في أبي محمد المهلب مع ما كان يخصه به من جميل الرعاية والإكرام :

أبعينَ مفتقرٍ إليكَ رأيتني بعد الغنى فرميتَ بي من حاليق^(٤)
 لستَ الملمومَ أنا الملمومُ لأنني أمّلتُ للإحسانِ غيرَ الخالقِ^(٥)

(١) ميدي : اضطربني وميل .

(٢) يستقيم وزن الشطر الثاني بإسكان الحاء من محيت . مودي : هالك .

(٣) أخلق وأنهج : بلى وأبلى .

(٤) الخالق المكان المرتفع .

(٥) وفي رواية أخرى ، أنزلت حاجاتي بغير الخالق .

خبيّة

لما كان أبو الفرج كاتباً لركن الدولة حظياً عنده توقع أن يكرمه الرئيس أبو الفضل بن العبيد ويبيجله فخاب ظنه فتهال يهجوّه :

مألك موفورٌ فما باله أ كسبك التّية على المعدم^(١)
ولم إذا جمّت نهضنا وإن جئنا تطاولت ولم تتمم
وإن خرجنا لم تقلّ مثل ما نقولُ قدّم طرفه قدّم^(٢)
إن كنتَ ذا علمٍ فمن ذا الذي مثل الذي تعلم لم يعلم
ولست في الغارب من دولة ونحن من دونك في المنسّم^(٣)
وقد ولينا وعزلنا كما أنت فلم نصغر ولم تعظم
تكفأت أحوالنا كلها فصل على الإنصاف أوفاضرم^(٤)

(١) المعدم : الفقير .

(٢) الطرف : الجواد .

(٣) الغارب : الكاهل وأعلى كل شيء ومنه غوارب الماء أى أعلى موجه . والمنسّم للإبل

هو كالظفر للإنسان أو هو طرف خف البعير والنعامه والقبيل ونحرتها .

(٤) اصدم : اقطع واهجر .

٢ - أبو الفرج الأصبهاني الناصر

١ - المؤرخ

إسلام جبلة بن الأيهم

تتنازع في هذا النص فكرتان : فكرة حرمة الدين وفكرة عز الملك ، خليفة يرى أن ملكاً من ملوك آل جفنة هشم أنف رجل من المسلمين في موسم الحج فلا يستطيع الإغضاء على هذا الأمر ، لأن الإسلام جمع الملوك والسوقة ، وملك يرى أن رجلاً من السوقة تعمد حل إزاره أمام أصحابه والمسلمين فلا يستطيع السكوت عن هذه الإهانة ، وكل فكرة تدل على مقدار تعلق صاحبها بالدفاع عنها :

لما أسلم جبلة بن الأيهم الغساني ، وكان من ملوك آل جفنة ، كتب إلى عمر رضي الله عنه يستأذنه في القدوم عليه ، فأذن له عمر ، فخرج إليه في خمسمائة من أهل بيته من عكّ وغسان ، حتى إذا كان على مرحلتين كتب إلى عمر يعلمه بقدومه ، فسرّ عمر رضوان الله عليه ، وأمر الناس باستقباله ، وبعث إليه بأنزال^(١) وأمر جبلة مائتي رجل من أصحابه فلبسوا السلاح والحديد وركبوا الخيول معقودةً أذنابها ، وألبسوها قلائد الذهب والفضة ، ولبس جبلة تاجه ، وفيه قرطاً مارية ، وهي جدّته ، ودخل المدينة فلم يبق بها بكر ولا عانس^(٢) ، إلا تبرّجت وخرجت تنظر إليه وإلى زيّه ، فلما انتهى إلى عمر رحّب به وألطفه^(٣) وأدنى مجلسه . ثم أراد عمر الحجّ فخرج معه جبلة ، فبينما هو يطوف بالبيت ، وكان مشهوداً بالموسم ، إذ وطى إزاره رجلٌ من بني فزارة فأنحلّ ،

(١) الأنزال : جمع نزل وهو ما هيء للضيف أن ينزل عليه .

(٢) عنست الجارية : طال مكثها في أهلها بعد إدراكها حتى خرجت من عداد الأبكار

ولم تتزوج .

(٣) ألطفه بكذا : بره .

فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزاري ، فاستعدى^(١) عليه عمر رضوان الله عليه ، فبعث إلى جبلة فأتاه ، فقال : ما هذا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إنه تعمّد حلّ إزارى ، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف ، فقال له عمر : قد أقررت ، فإمّا أن ترضى الرجل وإمّا أن أقيده^(٢) منك . قال جبلة : ماذا تصنع بى ؟ قال : أمر بهشم أنفك كما فعلت ، قال : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك ؟ ! قال : إن الإسلام جمعك وإياه ، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية . قال جبلة : قد ظننتُ يا أمير المؤمنين أنى أكون فى الإسلام أعز منى فى الجاهلية . قال عمر : دع عنك هذا ، فإنك إن لم ترض الرجل أقدته منك ، قال : إذاً أتَنْصَر ، قال : إن تنصّرت ضربت عنقك ، لأنك قد أسأمت ، فإن ارتددت قتلتك . فلما رأى جبلة الصدق من عمر قال : أنا ناظر فى هذا ليلتى هذه . وقد اجتمع بباب عمر من حىّ هذا وحىّ هذا خلقٌ كثير ، حتى كادت تكون بينهم فتنة . فلما أمسوا أذن له عمر فى الانصراف ، حتى إذا نام الناس وهدؤوا حمل جبلة بخيله ورواحله إلى الشام ، فأصبحت مكة وهى منهم بالاقع^(٣) ، فلما انتهى إلى الشام تحمل فى خمسمائة رجل من قومه ، حتى أتى القسطنطينية فدخل إلى هرقل فتنصّر هو وقومه ، فسرّ هرقل بذلك جدّاً ، وظنّ أنه فتحٌ من الفتوح عظيم وأقطعه حيث شاء ، وأجرى عليه من النزل ما شاء ، وجعله من محدّثيه وسَمّاره^(٤) .

(١) استعداه : استغاثه واستعان به واستنصره .

(٢) أقاد القتاتل بالقتيل : قتله به .

(٣) البلاقع : جمع البلاقع وهو الأرض القفر .

(٤) « الأغنى » ج ١٤ ص ٤ .

عيسى بن زيد في خشونة حياته

لو نطق كلام من ذات نفسه لنطق الكلام الذي اشتمل عليه هذا الخبر . إن عيسى بن زيد بن علي من الطالبيين الذين خافوا السلطان وهربوا منه . فوصف أبو الفرج الأصبهاني في هذه القطعة هيئته وتقواه وعيشته وصفاً نكاد نرى فيه عيسى بن زيد نفسه يذعر من ابن أخيه كما يذعر الوحش . فلو صور الصبر على خشونة الحياة لكان عيسى بن زيد صورته .

حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد ، على سبيل المذاكرة فحفظته عنه ، لم أكتبه من لفظه ، والحديث يزيد وينقص والمعنى واحد ، قال : حدثني محمد بن المنصور المرادي ، قال : قال يحيى بن الحسين بن زيد :

قلت لأبي : يا أبة ، إني أشتي أن أرى عمي عيسى بن زيد ، فإنه يقبح بمثلي أن لا يلقي مثله من أشياخه ، فدفعني عن ذلك مدة وقال : إن هذا أمر يثقل عليه ، وأخشى أن ينتقل عن منزله كراهية للقائك إياه فتزججه ، فلم أزل به أداريه وألطف به حتى طابت نفسه لي بذلك ، فجهّزني إلى الكوفة ، وقال لي : إذا صرت إليها فاسأل من دور بني حى ، فإذا دلت عليها فاقصدها في السكة الفلانية وسترى في وسط السكة داراً لها باب صفته كذا وكذا ، فاعرفه واجلس بعيداً منها في أول السكة ، فإنه سيقبل عليك عند المغرب كهل طويل مسنون الوجه ، قد أثر السجود في جبهته ، عليه جبة صوف ، يستقي الماء على جمل وقد انصرف يسوق الجمل لا يضع قدماً ولا يرفعها إلا ذكر الله — عز وجل — ودموعه تنحدر ، فقم وسلم عليه وعانقه ، فإنه سيذعر منك كما يذعر الوحش ، فعرفه نفسك وانتسب له ، فإنه يسكن إليك ويحدثك طويلاً ، ويسألك عما جميعاً ، ويخبرك بشأنه ، ولا يضجر بجلوسك معه ، ولا تطل عليه وودعه ، فإنه سوف يستغفبك

من العودة إليه ، فافعل ما يأمرك به من ذلك ، فإنك إن عدت إليه توارى عنك ، واستوحش منك وانتقل من موضعه ، وعليه في ذلك مشقة .

فقلت : أفعل كما أمرتني . ثم جهّزني إلى الكوفة وودعته وخرجت ، فلما وردت الكوفة قصدت سكة بني حنّ بعد العصر ، فجلست خارجها بعد أن تعرفت الباب الذي نعتته لي ، فلما غربت الشمس إذا أنا به قد أقبل يسوق الجمل ، وهو كما وصف لي أبي ، لا يرفع قدماً ولا يضعها إلا حرّك شفّتيه بذكر الله ، ودموعه ترقرق في عينيه وتذرف أحياناً ، فقممت فعانقته ، فذعر مني كما يذعر الوحش من الإنسان ، فقلت : يا عمّ ! أنا يحيى بن الحسين بن زيد بن أخيك ، فضمني إليه وبكى ، حتى قلت قد جاءت نفسه ، ثم أناخ جملة ، وجلس معي ، فجعل يسألني عن أهله رجلاً رجلاً ، وامرأة امرأة ، وصبيّاً صبيّاً ، وأنا أشرح له أخبارهم وهو يبكي ، ثم قال : يا بنيّ أنا أستقي على هذا الجمل الماء ، فأصرف ما أكتسب ، يعني من أجرة الجمل ، إلى صاحبه ، وأتقوت بآقيه ، وربما عاقني عائق عن استقاء الماء . فأخرج إلى البرية ، يعني بظهر الكوفة ، فالتقط ما يرمى الناس به من البقول فأتقوته .

وقد تزوجت إلى هذا الرجل ابنته ، وهو لا يعلم منّ أنا إلى وقتي هذا ، فولدت مني بنتاً ، فنشأت وبلغت ، وهي أيضاً لا تعرفني ، ولا تدري من أنا ، فقالت لي أمها : زوج ابنتك بآبن فلان السقاء — لرجل من جيراننا يسقي الماء — فإنه أيسر منا وقد خطبها ، وألحت عليّ ، فلم أقدر على إخبارها بأن ذلك غير جائز ، ولا هو بكفء لها ، فإشيع خبري ، فجعلت تلحّ عليّ فلم أزل أستكفي الله أمرها حتى ماتت بعد أيام ، فما أجدني آسى على شيء من الدنيا أساى على أنها ماتت ولم تعلم بموضعها من رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال : ثم أقسم على أن أنصرف ولا أعود إليه وودعني .
فلما كان بعد ذلك صرت إلى الموضع الذي انتظرت فيه لأراه فلم أره ، وكان
آخر عهدي به ^(١) .

الحسين صاحب فخ

ليس المؤرخ هو الذى يذكر الحوادث ويسرد الأخبار فالمؤرخ الحق يعنى زيادة على هذا برسم
أشخاصه وإبراز الجوانب الماثورة عنهم ليكمل بها إطار التاريخ . وهكذا فعل أبو الفرج وفيما اخترناه
من أخبار الحسين صاحب فخ ومحمد بن صالح شاهد عدل .

١

... حدثني الحسن بن هذيل قال :

قال لى الحسين صاحب فخ : اقترض لى أربعة آلاف درهم ، فذهبت إلى
صديق فأعطاني ألفين وقال لى : إذا كان غد فتعال حتى أعطيك ألفين ، فجئت
فوضعتها تحت حصير كان يصلى عليه ، فلما كان من الغد أخذت الألفين الآخرين
ثم جئت أطلب الذى وضعته تحت الحصير فلم أجده فقلت له : يا بن رسول الله ،
ما فعل الألفان ؟ قال : لا تسأل عنهما ، فأعدت فقال : تبعنى رجل أصفر من
أهل المدينة فقلت : ألك حاجة ؟ فقال : لا ولكنى أحبيت أن أصل جناحك
فأعطيته إياها . أما أنى أحسبني ما أجرت على ذلك لأنى لم أجدها حباً وقال الله
عز وجل : « لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبّون » ^(٢) .

(١) « مقاتل الطالبين » الصفحات ٤٠٨ - ٤١٠ .

(٢) سورة آل عمران ٩٢ .

... حدثني كردى بن يحيى عن الحسن بن هذيل قال :

كنت أصحب الحسين بن عليّ صاحب فسخ فقدم إلى بغداد فباع ضيعة له بتسعة آلاف دينار ، فخرجنا فنزلنا سوق أسد ، فبسط لنا على باب الخان ، فأتى رجل معه سلة فقال له : مر الغلام يأخذ منى هذه السلة ، فقال له : وما أنت ؟ قال : أصنع الطعام الطيب ، فإذا نزل هذه القرية رجل من أهل المروءة أهديته إليه . قال : يا غلام خذ السلة منه ، وعد إلينا لتأخذ سلتك . قال : ثم أقبل علينا رجل عليه ثياب رثة فقال : أعطوني مما رزقكم الله ، فقال لى الحسين : ادفع إليه السلة ، وقال له : خذ ما فيها وردّ الإئاء ، ثم أقبل على وقال : إذا ردّ السائل السلة فادفع إليه خمسين ديناراً ، وإذا جاء صاحب السلة فادفع إليه مائة دينار ، فقلت إبقاء منى عليه : جعلت فداك ، بعث عيناك لك لتقضى ديناً عليك فسألك سائل فأعطيته طعاماً ، وهو مقنع له ، فلم ترض حتى أمرت له بخمسين ديناراً ، وجاءك رجل بطعام لعله يقدر فيه ديناراً أو دينارين ، فأمرت له بمائة دينار ، فقال : يا حسن إن لنا رباً يعرف الحسنات ، إذا جاء السائل فادفع له مائة دينار وإذا جاء صاحب السلة فادفع له مائتي دينار ، والذي نفسى بيده إنى لأخاف أن لا يقبل منى ، لأن الذهب والفضة والتراب عندى بمنزلة واحدة .

... حدثني حمدون القراق قال :

ركب الحسين بن عليّ صاحب فسخ دين كثير فقال لغرمائه : إلحقونى إلى باب المهدي ، وخرج فجاء إلى باب المهدي فقال لأذنه : ابن عمك الينبعي على الباب ،

قال : وكان راكباً على جمل ، فقال له ويلك ، أدخله على جمه ، فأدخله حتى أناخه في وسط الدار ، فوثب المهدي فسلم عليه وعانقه وأجلسه إلى جنبه ، وجعل يسأله عن أهله ، ثم قال : يا بن عم ، ما جاء بك ؟ قال : ماجئت وورائي أحد يعطيني درهماً ، قال : أفلا كتبت إلينا ، قال ، أحببت أن أحدث بك عهداً . فدعا المهدي ببدره دنانير وبدره من دراهم وتخت من ثياب حتى دعا له بعشر بدر دنانير وعشر بدر دراهم وعشرة تحوت فدفعها إليه ، وخرج فطرح ذلك في دار ببغداد ، وجاء غرماءه فكان يقول للواحد : كم لك علينا ؟ فيقول : كذا وكذا ، فيزن له ، ثم يدخل يده في تلك الدراهم والدنانير فيقول : هذا صالة منك ، فلم يزل حتى لم يبق من ذلك المال إلا شيء يسير ، ثم انحدر إلى الكوفة يريد المدينة فنزل قصر ابن هبيرة في خان . فقيل لصاحب الخان : هذا رجل من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأخذ له سمكاً فشواه وجاء به ، ومعه رقاق وقال له : لم أعرفك يا بن رسول الله ، فقال لعلامه . كم بقي معك من ذلك المال ؟ قال : شيء يسير والطريق بعيد ، قال : ادفعه إليه ، فدفعه إليه^(١) .

محمد بن صالح

... حدثني إبراهيم بن المدبر قال :

جاء محمد بن صالح الحسيني وسألني أن أخطب عليه بنت عيسى بن موسى بن أبي خالد الحربى أو قال أخته ، شك ابن مهرويه ، ففعلت ذلك ، وصرت إلى عيسى فسألته أن يجييه ، فأبى وقال لى : لا أكذبك والله ، إني أودّه لأنى لا أعرف أشرف وأشهر منه لمن يصاهره ، ولاكنى أخاف المتوكل وولده بعده

على نعمتي ونفسي ، فرجعت إليه فأخبرته بذلك ، فأضرب عنه مدة ، ثم عاودني
بعد ذلك وسألتني معاودته فعاودته ورفقت به حتى أجاب وزوجّه ، فأنشدني
محمد بعد ذلك لنفسه :

خطبت إلى عيسى بن موسى فردّني فله والى مرّة وعتيقها
لقد ردّني عيسى ويعلم أنني سليل بنات المصطفى وعريقها
فلما أبي بخلاً بها وتمنّعاً وصيرني ذا خلة لا أطيّقها
تداركني المرء الذي لم يزل له من المكرمات رحبها وطريقها
سمي خليل الله وابن وليه وجمال أعباء العلا ومطيقها
فزوجني والمن عندى لغيره فيا بيعة وفتنى الربح سوقها
ويا نعمة لابن المدبر عندنا يجدّ على كر الزمان أنيقها

قال ابن مہرويه : قال ابن المدبر : وكان اسم المرأة حمدونة ، فلما نقلت إليه ،
وكانت امرأة جميلة عاقلة كاملة من النساء ، أنشدني لنفسه فيها قوله :

لعمر حمدونة إني بها لمغرم القلب طويل السقام
مجاوز للقدر في حبها مباين فيها لأهل الملام
مطّرح للعدل ماض على مخافة النفس وهول المقام
مشايعي قلب يعاف الخنا وصارم يقطع صمّ العظام
جشمتني ذلك وجدى بها وفضلها بين النساء الوسام
ممكورة الساق ردينية مع الشوى الخدل وحسن القوام
صامئة الحجل خفوق الحشا مائة الساق ثقال القيام
ساحية الطرف نؤوم الضحى منيرة الوجه كبرق الغمام

زيّنها الله وما شأنها وأعطيت منيتها من تمام
تلك التي لولا غرامى بها كنت بسامراً قليل المقام

وقال أبو الفرج :

وقد حدثني بخبره على أتم في هذه الحكاية عمى الحسين بن محمد قال :

حدثنا أبو جعفر بن الدهقانة النديم قال : حدثني إبراهيم بن المدبر قال :

جاءني يوماً محمد بن صالح الحسيني بعد أن أطلق من الحبس فقال لي : إني
أريد المقام عندك على خلوة لأبثك من أمرى شيئاً لا يصلح أن يسمعه أحد غيرنا ،
فقلت : أفعل . فصرفت من كان بحضرتي وخلوت معه وأمرت برد دابته . فلما
اطمأن وأكلنا واضطجعنا قال لي : أعلمك أنى خرجت في سنة كذا وكذا
ومعى أصحابي على القافلة الفلانية ، فقاتلنا من كان فيها فهزمناهم وملكنا القافلة ،
فبينما أنا أحوزها وأنيخ الجمال ، إذ طلعت على امرأة من عمارية ما رأيت قط
أحسن منها وجهاً ولا أحلى منطقاً ، فقالت لي : يا فتى ، إن رأيت أن تدعو
الشريف المتولى أمر الجيش ، فإن له عندي حاجة .

فقلت : قد رأيته وسمع كلامك .

فقالت لي : سألتك بالله وبحق رسوله أنت هو ؟

قلت : نعم والله وحق رسوله صلى الله عليه وآله إني لهو .

فقالت : أنا حمدونة بنت عيسى بن موسى بن أبي خالد الحرابي ، ولأبي
محل من سلطانه ، ولنا نعمة إن كنت سمعت بها فقد كفأك ما سمعت ، وإن
كنت لم تسمع بها فاسأل عنها غيري ، ووالله لا استأثرت عليك بشيء أملكه ،
ولك علىّ بذلك عهد الله جل وعز وميثاقه ، وما أسألك إلا أن تصونني وتسترنني ،

وهذه ألف دينار معى لنفقتى فخذها حلالاً ، وهذا حلىّ علىّ من خمسمائة دينار فخذ ، وأضمن لك بعد أخذك إياه ما شئت علىّ حكمك ، آخذه لك من تجار مكة والمدينة ، ومن أهل الموسم العراقيين ، فليس منهم أحد يمنعنى شيئاً أطلبه ، وادفع عنى واحنى من أصحابك ومن عار يلحقنى .

فوقع قولها فى قلبى موقعاً عظيماً فقلت لها : قد وهب الله لك مالك وجاهك وحالك ، ووهبت لك القافلة بجميع ما فيها ، ثم خرجت فنادت فى أصحابى فاجتمعوا إلىّ ، فنادت فيهم إني قد أجرت هذه القافلة وأهلها وخفرتها وحمتها وجعلت لها ذمة الله وذمة رسوله وذمتى ، فمن أخذ منها خيطاً أو مخيطاً أو عقلاً فقد آذنته بحرب . فانصرفوا معى وانصرفت ، وسار أهل القافلة سالمين .

فلما أخذت وحسبت ، بينا أنا ذات يوم فى محبسى إذ جاءنى السجان فقال لى : إن بالبواب امرأتين تزعمان أنهما من أهلك ، وقد حظر علىّ أن يدخل عليك أحد ، إلا أنهما قد أعطتاني دملج ذهب ، وجعلتاه لى إن أوصتتهما إليك ، وقد أذنت لهما وهما فى الدهليز ، فاخرج إليهما إن شئت .

فتنكرت من يجيئنى فى بلد غربة وفى حبس وحيث لا يعرفنى أحد ، ثم تفكرت فقلت : لعلهما من ولد أبى أو من بعض نساء أهلى ، فخرجت إليهما وإذا بصاحبتى ، فلما رأتنى بكت لما رأت من تغيير خلقى وثقل حديدى ، فأقبلت عليها الأخرى فقالت : أهو هو ؟ قالت : إى والله لهو هو . ثم أقبلت علىّ فقالت : فذاك أبى وأمى ، لو استطعت أن أقيك مما أنت فيه بنفسى وأهلى لفعلت ، واسكنت بذاك منى حقيقاً ، ووالله لا تركت المعاونة والسعى فى خلاصك ، وكل حيلة ومال وشفاعة ، وهذه دنائير وطيب وثياب فاستعن بها على موضعك ، ورسولى يأتيك فى كل يوم بما يصلحك حتى يفرج الله عنك . ثم

أخرجت إلى المرأة كسوة وطيباً ومائتي دينار ، وكان رسولها يأتيني في كل يوم بطعام نظيف ، ويتصل برّها عند السجن فلا يمتنع من كل ما أريد ، حتى من الله بخلاصي .

ثم راسلتها فخطبتها فقالت : أما من جهتي فأنا لك سامعة مطيعة ، والأمر إلى أبي ، فأتيته فخطبتها إليه فردّني وقال : ما كنت لأحقق عليها ما شاع في الناس عنك من أمرها فقد صيرتنا فضيحة . فقامت من عنده منكرراً مستحياً وقلت في ذلك :

رموني وإياها بشنعاء هم بها أحق أدال الله منهم فعبجلا
بأمر تركناه وربّ محمدٍ عياناً فإما عفة أو تجملا

فقلت له : إن عيسى صنّعة أخى ، وهولى مطيع ، وأنا أ كفيك أمره ، فلما كان من غد لقيت عيسى في منزله ثم قلت له : قد جئتكم في حاجة لى . فقال : هى مقضية ؛ ولو كنت استعملت ما أحبه لأمرتنى أن أجيتك فجئتكم فكان أسرّ إلى .

فقلت له : قد جئتكم خاطباً إليكم ابنتكم .

فقال : هى لك أمة ، وأنا لك عبد ، وقد أجبتكم .

فقلت : إني خطبتها على من هو خير منى أباً وأماً ، وأشرف لك صهراً ومتّصلاً : محمد بن صالح العلوى .

فقال لى : يا سيدى ، هذا رجل قد لحقنا بسببه ظنة ، وقيلت فينا أقوال .

فقلت له : أفليست باطلة .

فقال : بلى والحمد لله . فقلت : فكأنها لم تُقل ، وإذا وقع النكاح زال كل قول وتشنيع ، ولم أزل أرفق به حتى أجاب .

وبعثت إلى محمد بن صالح فأحضرتة وما برح حتى روجه ، وسقت الصداق عنه من مالى^(١) .

يوم أواره

كذلك يعنى المؤرخ الكفى بالأسباب والعلل عنايته بالمسبب والمعلول ، وبهذا تتمضى فلسفة التاريخ ، فراعى أبو الفرج هذه الفلسفة حين قدّم الأسباب وبنى عليها النتائج .

نسخت ذلك من كتاب عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات بخطه ، وذكر أن أحمد بن الهيثم بن الفراس أخبره به عن العمري عن هشام بن الكلبي عن أبيه وغيره من أشياخ طي قال : وحدثني محمد بن أبي السري عن هشام بن الكلبي قالوا :

كان من حديث يوم أواره ، أن عمرو بن المنذر بن ماء السماء ، وهو عمرو ابن هند ، يعرف باسم أمّه هند بنت الحرث الملك المنصور بن حجر آكل المرار الكندي ، وهو الذى يقال له مفرط الحجارة ، إنه كان عاقد هذا الحى من طي ألا ينازعوا ولا يفاخروا ولا يغزوا ، وأن عمرو بن هند غزا اليمامة ، فرجع منفصلاً ، فمر بطي ، فقال له زرار بن عدس ابن زيد بن عبد الله بن دارم الحنظلي : أبيت اللعن ، أصب من هذا الحى شيئاً ، قال : ويلك ، إن لهم عقداً ، قال : وإن كان ، فلم يزل به حتى أصاب نسوة وأزواداً ، فقال فى ذلك الطائي ، وهو قيس ابن جروة أحد الأخيين قال :

ألا حىّ قبل البين من أنت عاشقه
 ومن لا تواتى داره غير فينة
 وتعدو بصحراء الشوية ناقتى
 إلى الملك الخير ابن هند تزوره
 وإن نساء هنّ ما قال قائل
 ولو نيل فى عهد لنا لحم أرنب
 فهبك ابن هند لم تعقك أمانة
 وكذا أناساً حافظين بنعمة
 فأقسمت لا أحتل إلا بصهوة
 وأقسمت جهداً بالمنارل من منى
 لئن لم تغير بعض ما قد فعلتمو
 ومن أنت مشتاق إليه وشائقه
 ومن أنت تبكى كل يوم تفرقه
 كعدو النحوص قد أنيخت نواهقه
 ولبس من الفت الذى هو سابقه
 غنيمة سوء بينهم مهارقة
 ردنا وهذا العهد أنت معالقه
 وما المرء إلا عقده ومواقفه
 يسيل بنا تلح الملا وأبارقه
 حرام على رمله وشقائقه
 وما خب فى بطحاءن دراقه
 لأنتحين العظم ذو أنت عارقه

فسمى عارقاً بهذا البيت ، فبلغ هذا الشعر عمرو بن هند ، فقال زرار بن
 عدس ، أبيت اللعن ، إنه يستوعدك ، فقال عمرو بن هند لترملة بن شعاث
 الطائى وهو ابن عم عارق : أيهجونى ابن عمك ويتوعّدنى ؟ قال والله ما هجاك
 ولكنه قد قال :

والله لو كان ابن جفنة جاركم
 وسلاسلاً يبرقن فى أعناقكم
 ولما كان غارته على جيرانه
 ما إن كساكم غصّة وهوانا
 وإذا لقطّع تلکم الأقرانا
 ذهباً وريطاً رادعاً وجفانا

قالوا : الرادع المصبوغ بالزعفران ، وإنما أراد ترملة أن يذهب سخيمته ،
 فقال : والله لأقتلنه ، فبلغ ذلك عارقاً فأنشأ يقول :

من مبلغ عمرو بن هند رسالةً إذا استَحَقَّبتها العيس تمضي على البعد
 أيوعدني والرمل بيني وبينه تبين رويداً ما أمانة من هند
 ومما أجادوني رعان كأنها قبابل خيلٍ من كميته ومن ورد
 غدرت بأمرٍ أنت كنت احتذيتنا عليه وشرُّ الشيمة الغدرُ بالعهد
 فقد يترك الغدر الفتي وطعامه إذا هو أُمسى حلبةً من دم الفصد

فبلغ عمرو بن هند شعره هذا ، فغزا طيماً فأسر أسرى من طيء بن أخزم
 وهو رهط حاتم بن عبد الله ، فيهم رجل من الأحيين يقال له قيس بن جحدر ،
 وهو جد الطرماح بن حكيم ، وهو ابن خالة حاتم ، فوفد حاتم فيهم إلى عمرو
 ابن هند ، وكذلك كان يصنع ، فسأله إياهم فوهبهم له إلا قيس بن جحدر ،
 لأنه كان من الأحيين من رهط عارق فقال حاتم :

فككت عدياً كلها من إسارها فأنعم وشفعني بقيس بن جحدر
 أبوه أبي والأمهات أمهاتنا فأنعم فدتك اليوم نفسي ومعشري

فأطلقه . قال : وبلغنا أن المنذر بن ماء السماء وضع ابناً له صغيراً ، ويقال
 بل كان أخاً له صغيراً ، يقال له مالك ، عند زرارة ، وأنه خرج ذات يوم
 يتصيد فأخفق ولم يصب شيئاً ، فرجع فمر بإبل لرجل من بني عبد الله بن دارم ،
 يقال له سويد بن ربيعة بن زيد بن عبد الله بن دارم ، وكانت عند سويد ابنة
 زرارة بن عدس ، فولدت له سبعة غلمة ، فأمر مالك بن المنذر بناقاة سمينة منها
 فنحرها ثم اشتوى ، وسويد نائم ، فلما انتبه شد على مالك بعصا فضربه بها ،
 فأمه ومات الغلام وخرج سويد هارباً حتى لحق بمكة ، فعلم أنه لا يؤمن لخالف
 بني نوفل بن عبد مناة ، واحتط بمكة ، فمن ولده أهاب من عز بن قيس بن

سويد ، وكانت طيء تطلب عثرات زرارة وبنى أبيه حتى بلغهم ما صنعوا بأخي الملك ، فأنشأ عمرو بن ثعلبة بن ملقط الطائي يقول :

من مبلغ عمراً بأن المرء لم يخلق صبرة
لخوادث الأيام لا تبقى لها إلا الحجارة
إن ابن عجرة أمه بالسفح أسفل من أواره
تسفى الرياحُ خلاله سحياً وقد سلبوا إزاره
فاقتل زرارة لا أرى في القوم أفضل من زرارة

فلما بلغ هذا الشعر عمرو بن هند بكى حتى فاضت عيناه ، وبلغ الخبر زرارة فهرب ، وركب عمرو بن هند في طلبه فلم يقدر عليه ، فأخذ امرأته وهي حبلى . فقال أذكرك في بطنك أم أنثى ، قالت : لا علم لى بذلك ، قال : ما فعل زرارة الغادر الفاجر ؟ قالت : إن كان ما علمت الطيب العرق السمين المرق ، ويأكل ما وجد ، ولا يسأل عما فقد ، لا ينام ليلة يخاف ، ولا يشبع ليلة يضاف ، فبقر بطنها ، فقال : قوم زرارة لزرارة . والله ما قتلت أخاه فأت الملك ، فأصدقه الخبر فأتاه زرارة فأخبره الخبر ، فقال : جئنى بسويد ، فقال : لقد لحق بمكة ، قال : فعلى بنييه التسعة وأمهم بنت زرارة غلمة بعضهم فوق بعض ، فأمر بقتلهم ، فتناولوا أحدهم فضر بوا عنقه ، وتعلق بزرارة الآخرون ، فتناولوه ، فقال زرارة : يا بعضى دع بعضاً ! فذهبت مثلاً ، وقتلوا . وآلى عمرو بن هند باليعة ليحرقن من بنى حنظلة مائة رجل ، فخرج يريدنهم ، فبعث على مقدمته الطائي عمرو بن ثعلبة ابن عتاب ابن ملقط ، فوجدوا القوم قد نذروا ، فأخذوا منهم ثمانية وتسعين رجلاً بأسفل أواره من ناحية البحرين فحبسهم ، ولحقه عمرو بن هند حتى انتهى إلى أواره ، فضربت قبته فأمرهم بأخدود وحفر لهم ، ثم أضرمه ناراً ، فلما احتدمت

وتلظت قذف بهم فيها ، فاحترقوا ، وأقبل راكب من البراجم ، وهم بطن من بني حنظلة عند المساء ، ولا يدري بشيء مما كان يوضع له بغيره فأناخ ، فقال له عمرو بن هند : ما جاء بك ؟ قال حبّ الطعام ، قد أقويت ثلاثاً لم أذق طعاماً ، فلما سطع الدخان ظننته دخان طعام ، فقال له عمرو بن هند : ممن أنت ؟ قال : من البراجم ، قال عمرو : إن الشقي وافد البراجم ! فذهبت مثلاً ، ورمى به في النار ، فهجت العرب تميماً بذلك ، فقال ابن الصعق العامري قوله :

ألا أبلغ لديك بني تميم بأية ما يحبون الطعاما

وأقام عمرو بن هند لا يرى أحداً ، ففيل له : أبيت اللعن لو تحللت بامرأة منهم ، فقد أحرقت تسعة وتسعين رجلاً . فدعا بامرأة من بني حنظلة ، فقال لها : من أنت ، قالت : أنا الحمراء بنت ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل بن دارم ، قال : إني لأظنك أعجمية ، فقالت : ما أنا بأعجمية ولا ولدتنى العجم :

إني لبنتُ ضمرة بن جابر ساد معداً كابرأ عن كابر
إني لأختُ ضمرة بن ضمرة إذا البلاد لفّعتُ بجمرة

قال عمرو : أما والله لولا مخافة أن تلدى مثلك لصرفتكَ عن النار . قالت : أما والذي أسأله أن يضع وسادك ، ويخفض عمادك ، ويسلبك ملكك ، ما قتلت إلا نساء أعاليها ثدى ، وأسافلها دمي ، قال : اقذفوها في النار ، فالتفتت فقالت : ألا فتى يكون مكان عجوز ؟ فلما أبطأوا عليها قالت : صارت الفتيان حمماً ! فذهبت مثلاً ، فأحرقت ، وكان زوجها يقال له حوذة بن جرول ، بن نهشل ابن دارم ، فقال لقيط بن زرارة يعير بني مالك ابن حنظلة في أخذ من أخذ منهم الملك وقتله إياهم ونزولهم معه :

لمن دمنةً أقفرت^١ بالجناب إلى السفح بين الملا بالهضاب
 بكيت لعرفان آياتها وهاج لك الشوق نعب الغراب
 فأبلغ لديك بني مالك مغلفةً وسراة الرباب
 فإن امرأ أنتمو حوله تحفون قبته بالقباب
 يهين سراتكمو عامداً ويقتلكم مثل قتل الكلاب
 فلو كنتمو إبلا أملحت^٢ لقد كرعت للمياه العذاب
 ولكنكم غنم تصطفى ويترك سائرها للذباب
 لعمر أبيك إلى الخير ما أردت بقتلهم من صواب
 ولا نعمة إن خير الملو ك أفضلهم نعمة في الرقاب^(١)

السيف الكريم

أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال : حدّثنا علي بن محمد النوفلي قال :
 حدّثنا أبي قال : حدّثنا الحسن بن محمد بن عبد الله بن حسن بن علي قال : جاء
 أعرابي إلى أبي ، وهو مستتر بسويقة^(٢) قبل مخرجه ، ومعه سيف قد علاه
 الصدا فقال : يا ابن رسول الله ، إني كنت ببطن قديد^(٣) أرعى إبل في فيها فخل
 قطم^(٤) قد كنت ضربته ففقد علي وأنا لا أدري ، فخلابي فشد علي يريدني
 وأنا أحضر ، ودنا مني حتى إن لعابه ليسقط على رأسي لقربه مني . فأنا أشد

(١) « الأغاني » ج ١٩ ص ١٢٧ - ١٣٠

(٢) السويقة : علم لمكان .

(٣) مكان بالقرب من مكة .

(٤) القطم : الهائج .

وأنا أنظر إلى الأرض لعل أرى شيئاً أذبه^(١) عني به ، إذ وقعت عيني على هذا السيف ، قد فخص عنه السيل ، فظننته عوداً بالياً ، فضربت بيدي إليه فأخذته ، فإذا سيف فذبت به البعير عني ذباً والله ما أردت الذي بلغت منه ، فأصبت خيشومه فرميت بفقمه^(٢) ، فعلمت أنه سيف جيد ، وظننته من سيوف القوم الذين كانوا قتلوا في وقعة قديد ، وها هو ذا قد أهديته لك يا بن رسول الله . (قال) : فأخذه منه أبي وسر به وجلس الأعرابي يحادثه ، فبينما هو كذلك إذ أقبلت غنم لأبي ثلثمائة شاة فيها رعاؤها ، فقال له : يا أعرابي هذه الغنم والرعاة لك مكافأة لك عن هذا السيف . (قال) : ثم أرسل به إلى المدينة أو أرسل إلى قَيْن^(٣) فأتى به من المدينة ؛ فأمر به فحُلِّي ، فخرج أكرم سيوف الناس ، فأمر فاتخذ له جفن^(٤) ودفعه إلى أختي فاطمة بنت محمد . فلما كان اليوم الذي قُتل فيه قاتل بغير ذلك السيف . (قال) : وبقي السيف عند أختي فاطمة بنت محمد فزرتها يوماً وهي بينبُع في جماعة من أهل بيتي ، وكانت عند ابن عمها الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ، عليهم أجمعين السلام ، فخرجت إلينا — وكانت برزة^(٥) تجلس لأهلها كما يجلس الرجال وتحدثهم — فجلست تحدثنا ، وأمرت مولى لها فنحرن لنا جزوراً ليهيئ لنا منها طعاماً ، فنظرت إليها والجزور في النخل باركة وقد برزت وهي تسليخ ، فقالت : إني لا أرى في هذه الجزور مضرراً حسناً ، ثم دعت بالسيف وقالت : يا حسن فدتك أختك ، هذا سيف أبيك ، فخذ واجمع يدك في قائمه ، ثم اضرب به أثنائها من خلفها (تريد عراقيتها) وقد أثبتها للبروك وهي

(١) أذبه : أدفعه .

(٢) الفقم : أحد اللحيين وطرف الحنك .

(٣) القَيْن : الحداد وصانع السيوف .

(٤) الجفن : القراب .

(٥) البرزة من النساء : غير المتحجبة .

أربعة أعظم ، قال : فأخذت السيف ثم مضيت نحوها فضربت عراقيبها فقطعتها
والله أربعتها ، وسبقني السيف فدخل في الأرض فأشفقت عليه أن ينكسر إن
اجتذبتة فحفرت عنه حتى استخرجته (قال) : فذكرت حينئذ قول النمر
ابن تولب ^(١) :

أبقى الحوادثُ والأيامُ من نمرٍ أسيادَ سيفٍ كريمٍ إثرهُ بادي
تظلّ تحفرُ عنه الأرضُ مندفعاً بعد الذراعين والقيدين والهادي ^(٢)
ويروى : تظل تحفر عنه إن ظفرت به .

ب - الناقد

أبو تمام

يصور لنا أبو الفرج في هذه القطعة أبا تمام ، ويستعمل في رسم تلك الصورة الألوان التي رسم
بها النقاد شعر أبي تمام ، فكأنه إذ يروى عنهم يذهب مذهبهم ويطنب في شاعر يته وعبريته :

أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ، من نفس طي صليبة ، مولده ومنشؤه
بناحية منبج بقرية منها يقال لها جاسم ، شاعرٌ مطبوعٌ لطيف ، الفطنة ، دقيق
المعاني ، غوّاصٌ على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره ، وله مذهب في
المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء ، وإن كانوا قد فتحوه قبله ، وقالوا القليل
منه ، فإن له فضل الإكثار فيه والسلوك في جميع طرقه . والسليم من شعره النادر
شيء لا يتعلق به أحد ، وله أشياء متوسطة وردية رذلة جداً . وفي عصرنا هذا
من يتعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف ، وأقوام يتعمدون

(١) « الأغاني » ج ١٩ ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٢) الهادي : العنق .

الردىء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ويستعملون القحة والمكابرة في ذلك
ليقول الجاهل بهم إنهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه إلا بأدبٍ فاضل وعلم ثاقب ،
وهذا مما يتكسب به كثيرٌ من أهل هذا الدهر ، ويجعلونه وما جرى مجراه من
ثلب الناس وطلب معاييرهم سبباً للترفع ، وطلباً للرياسة . وليست إساءة من أساء
في القليل وأحسن في الكثير مستقطعةً إحسانه ، ولو كثرت إساءته أيضاً ثم أحسن
لم يقل له عند الإحسان أسأت ، ولا عند الصواب أخطأت . والتوسط في كل
شئ أجمل والحق أحق أن يُتبع . وقد روى عن بعض الشعراء أن أبا تمام
أنشده قصيدة له أحسن في جميعها إلا في بيتٍ واحد فقال له : يا أبا تمام لو ألقيت
هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب فقال له : أنا والله أعلم منه مثل ما تعلم ، ولكن
مثل شعر الرجل عنده مثل أولاده : فيهم الجميل والقبيح ، والرشيد والساقط ،
وكلهم حلوا في نفسه . فهو وإن أحب الفاضل لم يبغض الناقص ، وإن هوى بقاء
المتقدم لم يهوَ موت المتأخر . واعتذاره بهذا ضدّ لما وصف به نفسه في مدحه
الواثق حيث يقول :

جاءتك من نظم اللسانِ قلادةٌ سمطان فيها اللؤلؤُ المكنونُ
أهداكها صنع اللسانِ يمههُ جفراً إذا نضب الكلام معين^(١)
ويسىء بالإحسان ظناً لا كمن هو بابنه وبشعره مفتونُ

فلو كان يسىء بالإساءة ظناً ولا يفتن بشعره كمن في غنى عن الاعتذار له ، وقد
فضل أبا تمام من الرؤساء والكبراء والشعراء من لا يشقّ الطاعنون عليه غباره
ولا يدركون وإن جدّوا آثاره ، وما رأى الناس بعده إلى حيث انتهوا له في
جده نظيراً ولا شكلاً .

(١) الجفر : البئر الواسعة .

ولولا أن الرواة قد أكثروا في الاحتجاج له وعليه وأكثر متعصبوه الشرح
 لجيد شعره وأفرط معادوه في التسطير لرديئه والتنبيه على رذله ودينئه لذكرت منه
 طرفاً ، ولكن قد أتى من ذلك ما لا مزيد عليه . (أخبرني) عمي قال حدثني أبي
 قال سمعت محمد بن عبد الملك الزيات يقول أشعر الناس طراً الذي يقول :
 وما أبالي وخيرُ القولِ أصدقُهُ حقنتَ لي ماء وجهي أو حقنتَ دمي
 فأحببت أن أستثبت إبراهيم بن العباس وكان في نفسي أعلم من محمد وآدب
 فجلست إليه وكنت أجرى عنده مجرى الولد ، فقلت له مَنْ أشعر أهل زماننا
 هذا ؟ فقال الذي يقول :

مطرُ أبوك أبو أهلةً وائلٌ ملاً البسيطة عدّةً وعديدا
 نسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عمودا
 ورثوا الأبوةَ والحظوظَ فأصبحوا جمعوا جدوداً في العلى وجدوداً^(١)

فاتققا على أن أبا تمام أشعر أهل زمانه . (أخبرني) محمد بن يحيى الصولي
 وعلى بن سليمان الأخفش قالا : حدثنا محمد بن يزيد النحوي قال : قدم عمارة بن
 عقيل بغداد فاجتمع الناس إليه فكتبوا شعره وشعر أبيه وعرضوا عليه الأشعار
 فقال بعضهم ههنا شاعر يزعم أنه أشعر الناس طراً ويزعم غيرهم ضد ذلك ، فقال
 أنشدوني قوله فأنشدوه :

غدتْ تستجيرُ الدَّمْعَ خوفَ نوى غدٍ وعاد قتاداً عندها كل مرقدٍ^(٢)
 وأنقذها من غمرة الموتِ أنه صدودُ فراقٍ لا صدودُ تعمِدِ
 فأجرى لها الإشفاق دمعاً مورداً من الدَّمِ يجري فوق خدِّ مورّدٍ

(١) الحدود : الحظوظ ، وآباء الآباء .

(٢) النوى : الفراق . القتاد : الشوك .

هي البدر يغنيها تورُّدُ وجهها إلى كل من لاقت وإن لم تورِّدِ

ثم قطع المنشد ، فقال له عمارة : زدنا من هذا فوصل نشيده وقال :

ولكنني لم أحوِ وفراً مجمَّعاً ففرتُ به إلا بشملٍ مبدِّدٍ

ولم تعطني الأيامُ نوماً مسكناً ألدُّ به إلا بنومٍ مشرِّدٍ

فقال عمارة : لله درُّه ! لقد تقدم في هذا المعنى من سبقه إليه على كثرة القول

فيه حتى لقد حَبَّبَ الاغتراب ، هيه . فأنشده :

وطولُ مُقامِ المرءِ في الحىِّ مخلقٍ لذيِّباجتيهِ فاغترَبُ تتجدَّدُ (١)

فإني رأيتُ الشمسَ زِيدتُ محبَّةً إلى الناسِ أنْ لَيْستُ عليهم بِسَرْمَدٍ (٢)

فقال عمارة : كَمَلْ والله ! لئن كان الشعرُ بجودة اللفظ وحسن المعاني واطِّراد

المراد واتِّساق الكلام فإن صاحبكم هذا أشعر الناس . (أخبرني) محمد بن يحيى

الصولي قال : حدثني محمد بن موسى بن حماد ، قال : سمعت علي بن الجهم يصف

أبا تمام ويفضله ، فقال له رجل : والله لو كان أبو تمام أخاك ما زدت على مدحك

هذا فقال : إن لم يكن أخاً بالنسب فإنه أخٌ بالأدب والمودة . أما سمعت

ما خاطبني به حيث يقول :

إن لم يكْدَ مطَّرفُ الإخاء فإننا نغدو ونسرى في إخاءٍ تالِدٍ

أو يختلف ماء الوصالِ فماؤنا عذبٌ تحدرَ من غمامٍ واحدٍ

أو يفرقُ نسبٌ يؤلِّفُ بيننا أدبٌ أقنأه مقامُ الوالدِ (٣)

(١) أخلق : أبلى .

(٢) السرمَد : الدائم .

(٣) « الأغاني » ج ١٥ ص ٩٦ - ٩٧ .

البحترى

البحترى شاعر ملء القلب ، يضعه أبو الفرج حيث يجب أن يوضع ، وحيث أحب البحتري أن يضع نفسه في المفاضلة بينه وبين أبي تمام . ويزيد أبو الفرج على جانب الشاعرية في البحتري جانب النفس ، إذ يروى عنه تبرؤه من الهجاء :

ويكنى أبا عبادة ، شاعرٌ فاضل فصيح ، حسن المذهب نقيُّ الكلام مطبوع ، كان مشايخنا رحمة الله عليهم يَحْتَمُونَ به الشعراء ، وله تصرفٌ حسنٌ فاضل نقيٌّ في ضروب الشعر سوى الهجاء ، فإن بضاعته فيه نزرة^(١) وجيِّده منه قليل . وكان ابنه أبو الغوث يزعمُ أن السبب في قلة بضاعته في هذا الفن أنه لما حضره الموت دعا به وقال له : اجمع كلَّ شيءٍ قلته في الهجاء ، ففعل ؛ فأمره بإحراقه ثم قال له : يا بنيّ هذا شيءٌ قلته في وقت فشفيتُ به غيظي وكفأت به قبيحاً فعل بي ، وقد انقضى أربي في ذلك ، وإن بقي روى . وللناس أعقاب يؤرثونهم العداوة والمودة ، وأخشى أن يعود عليك من هذا شيء في نفسك أو معاشك لا فائدة لك ولا لي فيه . قال : فعلمت أنه قد نصحتني وأشفق عليّ فأحرقته . أخبرني بذلك على بن سليمان الأخفش عن أبي الغوث . وهذا وإن كان كما قال أبو الغوث لا فائدة فيه له ، لأن الذي وجدناه وبقي في أيدي الناس من هجائه فأكثره ساقط . . .

وكان البحتري يتشبه بأبي تمام في شعره ويحذو مذهبه وينحو نحوه في البديع الذي كان أبو تمام يستعمله ، ويراه صاحباً وإماماً ويقدمه على نفسه ويقول في الفرق بينه وبينه قول منصف : إن جيِّدَ أبي تمام خير من جيِّده ، ووسطه خيرٌ من وسط أبي تمام ورديئه ، وكذا حكم هو على نفسه^(٢) .

(١) نزرة : قليلة .

(٢) « الأغاني » ج ١٨ ص ١٦٧ .

ابن المعتز

دافع أبو الفرج الأصبهاني في هذه القطعة دفاعاً بليغاً عن ابن المعتز دل على إنصافه .
والقطعة ترينا أبا الفرج ناقداً من أئمة النقد ، يرى لكل عصر من العصور صوراً خاصة تستلزم
لغة خاصة ، فهو من المجددين لا من المحافظين ، وقد كانت لغته في صدر الدفاع هادئة ساكنة ،
ولكنه ما لبث أن ثار في آخر كلامه فخرج عن الاعتدال وكادت لغته تبلغ مبلغ الشتم والتذف .
والذي يخيل إلينا أن أبا الفرج في دفاعه عن ابن المعتز وفي تعرضه للطاعنين عليه دافع عن نفسه ،
فكأنه كان يشكو في حياته ما شكاه ابن المعتز بعد موته :

ومن صنع من أولاد الخلفاء فأجاد وأحسن وبرع^(١) وتقدّم جميع أهل عصره
فضلاً وشرفاً وأدباً وشعراً وظرفاً^(٢) وتصرفاً في سائر الآداب أبو العباس عبد الله
ابن المعتز بالله . وأمره مع قرب عهده بعصرنا هذا مشهور في فضائله وآدابه شهرةً
تشرك في أكثر فضائله الخاص والعام ، وشعره وإن كان فيه رقة الملوكة وغزل
الظرفاء وهلهلة^(٣) المحدثين : فإن فيه أشياء كثيرة تجرى في أسلوب المجيدين
ولا تقصر عن مدى السابقين ، وأشياء ظريفة من أشعار الملوك في جنس ما هم
بسبيله ، ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية ، فليس يمكن واصفاً لصَبوح^(٤)
في مجلس شِكِل^(٥) ظريف ، وعلى ميادين من النور والبنفسج والرجس
ومنضود^(٦) من أمثال ذلك ، إلى غير ما ذكرته من جنس المجالس ، وفاخر
الفرش ، ومختار الآلات ، ورقة الخدم أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام
السيّط^(٧) الذي يفهمه كل من حضر ، إلى جَعْدِ^(٨) الكلام ووحشيّه^(٩) ،

(١) برع : فاق أصحابه . (٢) الظرف : الكياسة .

(٣) الهلهل : الثوب السخيف النسيج . هاهله التساج .

(٤) الصبوح : ما حلب من اللبن بالغداة وما أصبح عندهم من شراب .

(٥) الشكل : بالكسر والفتح غنج المرأة ودلها وغزلها .

(٦) نضد متاعه : جعل بعضه فوق بعض .

(٧) السيّط : السهل المرسل .

(٨) الجعد : المعقد . (٩) الوحشي : الغامض .

وإلى وصف البید والمهامه^(١) والظبی والظلم^(٢) والناقة والجل والديار والقفار
والمنازل الخالية المهجورة ، ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسيء ، ولا
أن يغمط حقه كله إذا أحسن الكثير وتوسّط في البعض وقصر في اليسير ،
وينسب إلى القصير في الجميع لنشر المقابح وطى الحسن . فلو شاء أن يفعل هذا
كله أحد بمن تقدم لوجد مساغاً . ولو أن قائلاً أراد الطعن على صدور الشعراء ،
لقد رأى أن يطعن على الأعشى وهو أحد من يقدمه الأوائل على سائر
الشعراء بقوله : « فأصاب حبة قلبه وطحها »

وبقوله :

ويأمر لليحموم كل عشيّة بقتٍ وتعليق فقد كاد يسنق^(٣)

وأمثال لهذا كثيرة . وإنما على الإنسان أن يحفظ من الشيء أحسنه ، ويلغى
ما لم يستحسنه فليس مأخوذاً به ، ولكن أقواماً أرادوا أن يرفعوا أنفسهم الوضيعة
بذكرهم الخامل ، ويعلموا أقدارهم الساقطة بالطعن على أهل الفضل والقدح فيهم
فلا يزدادون بذلك إلا ضعةً ولا يزداد الآخر إلا ارتفاعاً . ألا ترى إلى ابن المعتز
قد قتل أسوأ قتلة ، ودرج فلم يبق له خلف يقرّظة^(٤) ولا عقب يرفع منه ،
وما يزداد بأدبه وشعره وفضله وحسن أخباره وتصرفه في كل فن من العلوم
إلا رفعة وعلواً ، ولا نظر إلى أضداده كما ازدادوا في طعنه وتقرّيط أنفسهم وأسلافهم

(١) المهامه : جمع مهيمه وهو المفازة البعيدة .

(٢) الظلم : ذكر النعام .

(٣) القمت : الحب البرى . التعليق : ما تتبلغ به الماشية من الشجر . الليحموم : اسم

فرس . سنق من اللبن كفرح بشم واتخم .

(٤) قرظته : مدحه وهو حى .

الذين كانوا مثلهم في ثلبه والطعن عليه زادوها سقوطاً وضعة ، وكلما وصفوا أشعارهم وقرظوا آدابهم ، زادوا بها ثقلاً ومقتاً فإذا وقع عليهم المحصل^(١) للموافق عدلوا عن ثلبه في الآداب إلى الشنيع^(٢) عليه بأمر الدين وهجاء آل طالب ، وهم أول من فعل ذلك وشنع به على آل أبي طالب عند المكتفى حتى نهاهم عنه . فعدلوا عن عيب أنفسهم بذلك إلى عيبه ، وارتكبوا أكثر منه^(٣) .

ج - مصور المجتمع

تسلط العامة على الخاصة

تتبع أبو الفرج الأصهباني أخبار العامة وذكر طائفة من عقولها وتدلبيسها ولغتها ومعتقداتها وتسلطها على الخاصة بحيث إذا أردنا الموازنة بين العامة في غابرتنا والعامة في حاضرتنا وصلنا إلى تشابه في جملة من أوضاعهم ، وهذا الخبر يدلنا على مقدار تسلط العامة على الخاصة حتى يضطر رجل مثل أبي يوسف القاضي إلى أن يتقى شرها .

قدم ابن جامع قدمة له من مكة على الرشيد ، وكان ابن جامع حسن السمّت^(٤) كثير الصلاة قد أخذ السجود جبهته ، وكان يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة ، ويلبس لباس الفقهاء ويركب حمراً مريسياً^(٥) في زى أهل الحجاز . فبينما هو واقف على باب يحيى بن خالد يلتمس الإذن عليه ، فوقف على ما كان يقف الناس عليه في القديم حتى يأذن لهم أو يصرفهم ، فأقبل أبو يوسف القاضي بأصحابه أهل

(١) المحصل : المميز .

(٢) التشنيع : تكشير الغضاغة والقميح .

(٣) « الأغاني » ج ٩ ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٤) السمّت : هيئة أهل الخير .

(٥) المريسي : قد يجوز أن يكون الحمار المريسي منسوباً إلى مريسة وهي قرية .

القلانس ، فلمّا هجم على الباب نظر إلى رجل يقف إلى جانبه ويحادثه ، فوقعت عينه على ابن جامع ، فرأى سمته وحلاوة هيئته ، فجاء فوقف إلى جانبه ، ثم قال له : أمتع الله بك ! توسمت فيك الحجازية والقرشية . قال أصبت ، قال : فمن أى قریش أنت قال : من بنى سهم ، قال فأى الحرمين منزلك ! قال : مكة ، قال : ومن لقيت من فقهاءهم ! قال : سلّ عن شئت . ففاتحه الفقه والحديث فوجد عنده ما أحب ، فأعجب به ونظر الناس إليهما فقالوا : هذا القاضى قد أقبل على المغنى ، وأبو يوسف لا يعلم أنه ابن جامع ، فقال أصحابه : لو أخبرناه عنه ، ثم قالوا : لعلّ لا يعود إلى مرافقته بعد اليوم فلم نغمه ؛ فلما كان الإذن الثانى ليحيى غدا عليه الناس ، وغدا عليه أبو يوسف ، فنظر يطلب ابن جامع فراه ، فذهب فوقف إلى جانبه ، فحادثه طويلاً كما فعل فى المرة الأولى . فلما انصرف قال له بعض أصحابه : أيها القاضى ، أتعرف هذا الذى تواقف وتحادث ! قال : نعم ، رجل من قریش ، من أهل مكة من الفقهاء . قالوا : هذا ابن جامع المغنى . قال : إنا لله ! قالوا : إن الناس قد شهروك بموافقته وأنكروا ذلك من فعلك . فلما كان الإذن الثالث جاء أبو يوسف ونظر إليه فتسكبه^(١) ، وعرف ابن جامع أنه قد أنذر به فجاء فوقف فسلم عليه فرد السلام عليه أبو يوسف بغير ذلك الوجه الذى كان يلقاه به ثم انحرف عنه ، فدنا منه ابن جامع ، وعرف الناس القصة ، وكان ابن جامع جهوريّاً ، فرفع صوته ثم قال : يا أبا يوسف مالك تنحرف عني ! أى شىء أنكرت ! قالوا لك إني ابن جامع المغنى فكرهت موافقتى لك ! أسألك عن مسئلة ثم اصنع ما شئت . ومال الناس فأقبلوا نحوها يستمعون فقال : يا أبا يوسف لو أن أعرابياً جلفاً وقف بين يديك فأنشدك بجفاء وغلظة من لسانه وقال :

يادار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

أكنت ترى بذلك بأساً؟ قال : لا . قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في الشعر قول وروى في الحديث . قل ابن جامع : فإن قلت أنا هكذا . . . ثم اندفع يتغنى فيه حتى أتى عليه ، ثم قال : يا أبا يوسف رأيتني زدت فيه أو نقصت منه ؟ قال : عافاك الله ! أعفنا من ذلك ، قال : يا أبا يوسف أنت صاحب فتيا ، ما زدت على أن حسنته بالفاظي فحسن في السماع ووصل إلى القلب . ثم تنحى عنه ابن جامع^(١) .

عقلية العامة

العامة عامة في كل عصر ، أفتختلف هذه العقلية التي وصفها أبو الفرج عن عقلية العامة في زمننا هذا ؟ فكتاب الأغاني لم يقتصر على أخبار الخلفاء والملوك وإنما نزل صاحبه إلى مستوى الشعب فراقب أخلاقه وعاداته وعقليته .

قال أبو الفرج :

أخبرني الحسن بن علي قال : حدثنا ابن مَرْوِيَه قال : حدثني عثمان الورّاق قال : رأيت العنّابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام ، فقلت له : ويحك أما تستحي ؟ فقال لي : أرايت لو كنّا في دار فيها بقر كنت تستحي وتحشم أن تأكل وهي تراك ؟ فقال : لا ، قال : فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر ، فقام فوعظ وقصّ ودعا حتى كثر الزحام عليه ، ثم قال لهم : روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسانه أرنبه^(٢) أنفه لم يدخل النار ! فما بقي أحد إلا وأخرج لسانه يومئ به نحو

(١) « الأغاني » ج ٦ ص ٦٦ - ٦٧ .

(٢) الأرنبه : طرف الأرنف .

أرنبه أنفه ويقدر حتى يبلغها أم لا ، فلما تفرقوا قال لي : العتّابي : ألم أخبرك أنهم بقر !^(١)

الغناء في دمشق

هذه القطعة تدلنا على ذوق أهل دمشق في الغناء من أيام بني أمية ، فكتاب الأغاني لا يقتصر على جمع الأغاني العربية قديمها وحديثها ، وإنما فيه تصوير للحياة من أكثر نواحيها وأولا هذه الصور المبعثرة في أضفافه لصاع علينا كثير من آثار الحياة في الدولتين الأموية والعباسية .

قال معبد :

أرسل إلى الوليد بن يزيد فأشخصت^(٢) إليه ، فبينما أنا يومافى بعض حمامات الشام إذ دخل على رجل له هيبة ومعه غلمان فاطلى واشتغل به صاحب الحمام عن سائر الناس ، فقلت : والله لئن لم أطلع هذا على بعض ما عندي لأكونن بمزجر^(٣) الكلب ، فاستدبرته^(٤) حيث يراني ويسمع مني ثم ترنمت ، فالتفت إلى وقال للغلمان : قدّموا إليه ما ههنا ، فصار جميع ما كان بين يديه عندي ، قال : ثم سألتني أن أسير معه إلى منزله فأجبتة ، فلم يدع من البر والإكرام شيئا إلا فعله ، ثم وضع النبيذ فجعلت لا آتي بحسن إلا خرجت إلى ما هو أحسن منه ، وهو لا يرتاح ولا يحفل^(٥) لما يرى مني . فلما طال عليه أمرى قال : يا غلام ! شيخنا شيخنا ! فأتى بشيخ فلما رآه هش إليه ، فأخذ الشيخ العود ثم اندفع يغنى :

سَلَوْرُ في القَدْرِ وَيَلِي علوّه جاء القطُّ أكله وَيَلِي علوّه

(١) « الأغاني » ج ١٢ ص ٤ .

(٢) أشخص إليه : أرسل إليه .

(٣) يقال فلان من فلان بمزجر الكلب أى بمنزلته .

(٤) استدبره : جاءه من خلفه .

(٥) يحفل : يكثرث .

السَّلَوْر السمك الجَدِيُّ بُلغة أهل الشام قال : فجعل صاحب المنزل يصفق
ويضرب برجله طرباً وسروراً . قال : ثم غنّاه :

وترميني حبيبة بالدراقن وتحسبني حبيبة لا أراها

الدراقن اسم الخوخ بُلغة أهل الشام ، قال : فكاد أن يخرج من جلده طرباً
قال : وانسلت منهم وانصرفت ولم يعلم ما بي . فما رأيت مثل ذلك اليوم قط
غنّاء أضيع ولا شيخاً أجهل ^(١) .

الغنّاء في حمص

لا نمر بخبر في كتاب الأغاني إلا وجدنا فيه شيئاً طريفاً ، فإذا أرشدنا هذا الخبر إلى ذوق أهل
حمص في الغنّاء في قديم العصور فهو يرشدنا إلى مجتمعاتهم القديمة وهي الحمامات التي كانت تقوم مقام
المتاهي في عصرنا هذا .

أما التحفة اللغوية التي نظفر بها في هذه القطعة فهي كلمة الخفائف التي كانت تستعمل بدلا
من الطمطابق في هذا اليوم .

قال حنين :

خرجتُ إلى حمص أَلتمسُ الكسبَ بها وأرتادُ من أَسْتفيد منه شيئاً ،
فسألت عن الفتيان وأين يجتمعون ، فقل لي : عليك بالحمامات ، فإنهم يجتمعون
بها إذا أصبحوا ، فجئتُ إلى أحدها فدخلته فإذا فيه جماعة منهم ، فأنستُ
وانبسطت ، وأخبرتهم أني غريب ، ثم خرجوا وخرجت معهم فذهبوا بي إلى
منزل أحدهم ، فلما قعدنا أوتينا بالطعام فأكلنا ، وأوتينا بالشراب فشرَبنا ،
فقلت لهم : هل لكم في مغنٍّ يغنيكم ؟ قالوا : ومن لنا بذلك ؟ قلت : أنا لكم
به ، هاتوا عوداً ، فأثيت به ، فابتدأت في هنات أبي عبّاد معبد ، فكأنما غنيتُ

للحيطان ، لا فكهوا لغنائى ولا سرُّوا به ، فقلت : ثقل عليهم غناء معبد لكثرة عمله وشدته وصعوبة مذهبه ، فأخذت فى غناء الغريض فإذا هو عندهم كلا شىء ، وغنيتُ خفاف ابن سريج ، وأهزاج حكم ، والأغانى التى لى ، واجتهدت فى أن يفهموا فلم يتحرك من القوم أحدٌ . وجعلوا يقولون : ليت أبا منبه قد جاءنا . فقلت فى نفسى : أرى أبى سأفتضح اليوم بأبى منبه فضيحة لم يفتضح أحدٌ قطٌ مثلها ، فبينما نحن كذلك إذ جاء أبو منبه ، وإذا هو شيخٌ عليه خفان أحمران كأنه جمال ، فوثبوا جميعاً إليه وسلموا عليه ، وقالوا : يا أبا منبه أبطأت علينا ، وقدّموا له الطعام وسقوه أقداحاً ، وخنستُ أنا حتى صرتُ كلا شىء خوفاً منه ، فأخذ العود ثم اندفع يغنى :

طرب البحرُ فاعبرى يا سفينته لا تشقى على رجال المدينه
فأقبل القوم يصفقون ويطربون ويشربون ، ثم أخذ فى نحو هذا من الغناء فقلت فى نفسى : أنتم هنا لنن أصبحتمُ سالماً لا أمسيتُ فى هذه البلدة . فلما أصبحت شددت رحلى على ناقتى واحتقبت ركوةً من شراب ورحلت متوجّهاً إلى الحيرة وقلت :

ليت شعرى متى تحبّ بى النّا قةً بين السّدير والصّنين^(١)
محقباً ركوة وخبز رقاق وبقولاً وقطعةً من نون^(٢)
لست أبغى زاداً سواها من الشّا م وحسبى علالةً تكفينى^(٣)
فإذا أبئتُ سالماً قلتُ سحقا وبعاداً لمعشر فارقونى^(٤)

(١) الخبب : ضرب من العدو . صنين : كسكين موضع بالكوفة .

(٢) الرقاق كغراب الخبز الرقيق .

(٣) العلالة ما يتعلل به وما حلب بعد الفيلة الأولى .

(٤) « الأغانى » ج ٢ ص ١١٩ .

مجالس ملوك غسان

وصف أبو الفرج في هذا الخبر مجلس جبلة بن الأيهم أحد ملوك غسان ، وهو خبر طريف لأننا لا نستطيع أن نهتدى إلى أخبار أولئك الملوك الخاصة في كثير من كتبنا ، فقد يهمننا أن نعرف كيف كان طرز عيشة ملوك عاصروا البيزنطيين في الشام ، وكيف كان أدبهم وأخلاقهم في مجالسهم ؛ وفي هذا الخبر موازنة بين أخلاق طائفة من المسلمين في أثناء الشرب وبين أخلاق طائفة من الغساسنة :

قال خارجة بن زيد : دُعينا إلى مأدبة في آل نبيط فحضرتها وحسان بن ثابت قد حضرها ، فجلسنا جميعاً على مأدبة واحدة وهو يومئذ قد ذهب بصره ومعه ابنه عبد الرحمن ، فكان إذا أتى طعام سأل ابنه : أطعامُ يدٍ أم يدين ، يعنى باليد الثريد وباليدين الشواء^(١) لأنه ينهش نهشاً ؛ فإذا قال : طعام يدين ، أمسك يده . فلما فرغوا من الطعام أتوا بجاريتين إحداها رائقة والأخرى عزّة جلستا وأخذتا مزهريهما وضربتا ضرباً عجيباً وغنتا بقول حسان :

انظرْ خليلي ببابِ جَلَقٍ هل تبصر دون البلقاء من أحدٍ^(٢)

فأسمع حسان يقول : قد أراى بها سميعاً بصيراً ، وعيناها تدمعان ، فإذا سكنتا سكت عنه البكاء ، وإذا غنتا بكى . فكنت أرى ابنه عبد الرحمن إذا سكنتا يشير إليهما أن تغنيا فيبكي أبوه فيقول : ما حاجته إلى إِبْكاء أبيه ؟ قال الواقدي : فحدثت بهذا الحديث يعقوب بن محمد الظفري فقال : سمعت سعيد بن عبد الرحمن بن حسان يقول : لما انقلب حسان من مأدبة بني نبيط إلى منزله استلقى على فراشه ووضع إحدى رجليه على الأخرى وقال : لقد أذكرتني رائقة وصاحبتهامراً ما سمعته أذنأى بُعيدَ ليالى جاهليتنا مع جبلة بن الأيهم ، فتبسّم

(١) الشواء : اللحم المشوى .

(٢) جلق : من أسماء دمشق أو غوطتها .

ثم جلس فقال : لقد رأيت عشرين خمسين روميّات يغنين بالبرابط^(١) وخمسين يغنين غناء أهل الحيرة، وأهداهنّ إليه إياس بن قبيصة ، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها . وكان إذا جلس للشرب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب ، وأتى بالمسك الصحيح في صحاف الفضة ، وأوقد له العود المندى إن كان شاتياً ، وإن كان صائفاً بطنّ بالثلج وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية يتفضل^(٢) هو وأصحابه بها في الصيف وفي الشتاء الفراء الفنك^(٣) وما أشبهه ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلع على ثيابه التي عليه في ذلك اليوم، وعلى غيرى من جلسائه هذا مع حلم عن جهل ، وضحك وبذل من غير مسألة ، مع حسن وجه وحسن حديث ما رأيت منه خنّي قط ولا عريضة ، ونحن يومئذ على الشرك فجاء الله بالإسلام فحما به كل كفر وتركنا الخمر وما كره وأنتم اليوم مسلمون تشربون هذا النبيذ من التمر والفضيخ^(٤) من الزهر والرطب فلا يشرب أحدكم ثلاثة أقذاح حتى يصاحب صاحبه ويفارقها وتضرب فيه كما تضرب غرائب^(٥) الإبل فلا تنتهون^(٦) .

(١) البرابط : واحدها البربط وهو العود .

(٢) يتفضل بها : يمتثلها .

(٣) الفنك : دابة فروتها أطيب أنواع الفراء .

(٤) الفضفيخ : عصير العنب وشراب يتخذ من بسر مكسور .

(٥) غرائب الإبل : البعيدة .

(٦) « الأغاني » ج ١٦ ص ١٣ - ١٤ .

الأعشى والملحق

كان الشعر في المجتمع العربي القديم يفعل في التشويه بالماثر والمكرمات ما تفعله اليوم الصحافة والإذاعة، ثم كان السبيل إلى أعلى درجات المجد والشرف إذا كان الشاعر صاحب لسان رطب يطرى فعال الكرام، وهذه الحكاية مثل صادق : لذلك المجتمع وأثر الشعر فيه :

(وأخبرني) محمد بن الحسن بن دريد قال : حدثنا أبو حاتم عن أبي عبيدة عن فراس بن الخننف قال : كانت هريرة وخليدة أختين قيذتين^(١) كانتا للبشر ابن عمرو بن مرثد ، وكانتا تغنيانه النصب ، وقدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان . قال ابن دريد : فأخبرني عمي عن ابن الكلبي بمثل ذلك (وأخبرني) محمد بن العباس اليزيدي عن الرياشي مما أجاز له عن العتبي عن رجل من قيس عيلان قال : كان الأعشى يوافي سوق عكاظ في كل سنة ، وكان الملحق السكابي مثنائاً مملقاً^(٢) ، فقالت له امرأته : يا أبا كلاب ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر ؟ فما رأيت أحداً اقتطعه إلى نفسه إلا وأكسبه خيراً ، قال : ويحك ما عندي إلا ناقتي وعليها الحمل ، قالت : الله يخليها عليك . قال : فهل له بد من الشراب والمسوح ؟ قالت : إن عندي ذخيرة لي وأعلم أن أجمعها . قال : فتلقاه قبل أن يسبق إليه أحد ، وابنه يقوده فأخذ الخطام^(٣) ، فقال الأعشى : من هذا الذي غلبنا على خطامنا ؟ قال : الملحق . قال : شريف كريم . ثم سلمه إليه فأناخه فنحمر له ناقتة وكشط له عن سنامها^(٤) وكبدها ثم سقاه . وأحاطت بناته به يغمزنه ويمسحنه فقال : ما هذه الجوارى حولي ؟ قال : بنات أخيك ، وهن ثمان

(١) القينة : الأمة والمغنية .

(٢) أي كان كثير الإناث فقيراً .

(٣) الخطام : كل ما يوضع في أنف البعير ليقماد به .

(٤) السنام : حذبة في ظهر البعير .

شريدتهن قليلة . قال : وخرج من عنده ولم يقل فيه شيئاً . فلما وافى سوق
عكاظ إذا هو بسرحة قد اجتمع الناس عليها وإذا الأعشى ينشدهم :

لعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ إلى ضوء نارٍ باليفاع تحرقُ
تُشبُّ لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمَلَقُ
رضيعي لبانٍ ثدى أمِّ تحالفا بأسحم داجٍ عَوْضُ لا نتفرقُ

فسلم عليه الملق فقال له : مرحباً يا سيدي بسيّد قومه . ونادى يا معاشر
العرب هل فيكم مذكار يزوج ابنه إلى الشريف الكريم ؟ (قال) فما قام من
مقعدته وفيهن مخطوبة إلا وقد زوجها . . .

(وذكر) على بن محمد النوفلي في خبر الملق مع الأعشى غير هذه الحكايات،
وزعم أن أباه حدثه عن بعض الكلابيين من أهل البادية قال : كان لأبي الملق
شرف ، فمات وقد أترف ماله وبقي الملق وثلاث أخوات له ، ولم يترك لهم إلا
ناقة واحدة وحلتى برود جيدة كان يسدّ بها الحقوق . فأقبل الأعشى من بعض
أسفاره يريد منزله باليمامة ، فنزل الماء الذي به الملق ، فقراه ^(١) أهل الماء فأحسنوا
قراه ، فأقبلت عمة الملق فقالت : يا ابن أخي ! هذا الأعشى قد نزل بمائنا وقد
قراه أهل الماء ، والعرب تزعم أنه لم يمدح قومًا إلا رفعهم ولم يهج قومًا إلا وضعهم ،
فانظر ما أقول لك واحتل في زقّ من خمر من عند بعض التجار ، فأرسل إليه بهذه
الناقة والزق وبردتي أيبك ، فوالله لئن اعتلج الكبد والسنام والخمر في جوفه ،
ونظر إلى عطفه في البردتين ليقولن فيك شعراً يرفعك به . قال : ما أملك غير
هذه الناقة ، وأنا أتوقع رسلها ، فأقبل يدخل ويخرج ويهم ولا يفعل ، فكلما
دخل على عمته حضته حتى دخل عليها فقال : قد ارتحل الرجل ومضى . قالت

الآن والله أحسن ما كان القرى ! تتبعه ذلك مع غلام أبيك ، مولى له أسود شيخ ، فحيثما لحقه أخبره عنك أنك كنت غائباً عن الماء عند نزوله إياه ، وأنت لما وردت الماء فعلمت أنه كان كرهت أن يفوتك قراه ، فإن هذا أحسن لموقعه عنده . فلم تزل تحضه حتى أتى بعض التجار فكلّمه أن يقرضه ثمن زقّ خمرٍ وأتاه بمن يضمن ذلك عنه فأعطاه . فوجه بالذاقة والخمر والبردين مع مولى أبيه فخرج يتبعه ، فكلما مرّ بماء قيل ارتحل أمس عنه ، حتى صار إلى منزل الأعشى بمنفوحة اليمامة ، فوجد عنده عدّة من الفتيان قد غداهم بغير لحم وصب لهم فضيخاً . فهم يشربون منه إذ قرع الباب فقال : انظروا من هذا ؟ فخرجوا فإذا رسول الحلق يقول كذا وكذا . فدخلوا عليه وقالوا : هذا رسول الحلق الكلابي أتاك بكيت وكيت . فقال : ويحكم ! أعرابي والذي أرسل إليّ لا قدر له ، والله لئن اعتلج الكبد والسنام والخمر في جوفى لأقولن فيه شعراً لم أقل قطّ مثله ، فوثابه الفتيان وقالوا : غبت عنا فأطلت الغيبة ثم أتيناك فلم تطعمنا لحماً وسقينا الفضيخ ، واللحم والخمر بيبابك ، لا نرضى بذا منك ، فقال : ائذنوا له فدخل فأدّى الرسالة وقد أناخ الجزور بالباب ووضع الزق والبردين بين يديه قال : أقره السلام وقل له : وصلتك رحمتك سيأتيك ثناؤنا . وقام الفتيان إلى الجزور فنحروها وشقوا خاصرتها عن كبدها وجلدها عن سنانها ثم جاءوا بهما فأقبلوا يشوون ، وصبوا الخمر فشربوا وأكل معهم وشرب ولبس البردين ونظر إلى عطفيه فيهما فأنشأ يقول :

* أُرقت وما هذا السهاد المورق * حتى انتهى إلى قوله :

أبا مسمع سار الذي قد فعلتم فأنجد أقوام به ثم أعرقوا^(١)
به تعقد الأجمال في كل منزل وتعقد أطراف الجبال وتطلق

قال ففسار الشعر وشاع في العرب فما أتت على الخلق سنة حتى زوج أخواته
الثلاث كل واحدة على مائة ناقة فأيسر وشرف^(١).

مباراة الأجواد

الجدود شبيبة من شيم العرب عرفوا بها كما عرفوا بسواها من الشيم الرفيعة كالإباء والشيم وحماية
الجار . ولقد كان الجدود عنصراً مهماً من عناصر حياتهم الاجتماعية ، فلا بد لمن يصور تلك الحياة من
الإلمام بهذا الجانب ، كما فعل أبو الفرج في هذه الحكاية وكثير غيرها .

أخبرني محمد بن خلف بن المرزبان قال : حدثنا أحمد بن الهيثم بن فراس قال :
حدثنا العمري عن الهيثم بن عدي عن ابن عياش قال : كان حوشب بن يزيد
ابن الحويرث بن رويم الشيباني وعكرمة بن ربيع يتنازعان الشرف ويتباريان
في إطعام الطعام ونحر الجزر في عسكر مصعب ، وكاد حوشب يغلب عكرمة لسعة
يده ، قال وقدم عبد العزيز بن يسار مولى بنحتر قال ، وهو زوج أم شعبة الفقيه ،
بسفائن دقيق فأتاه عكرمة فقال له : الله الله في قد كاد حوشب أن يستعائني
ويغلبني بماله فبغني هذا الدقيق بتأخير ، ولك فيه مثل ثمنه ربحاً فقال : خذه
وأعطاه إياه فدفعه إلى قومه وفرقه بينهم ، وأمرهم بعجنه كله فعجنوه كله ، ثم
جاء بالعجين كله فجمعه في هوّة عظيمة وأمر به فغطى بالحشيش ، وجاء برمكة^(٢)
فقرّبوها إلى فرس حوشب حتى طلبها وأفلت ، ثم ركضوها بين يديه وهو يتبعها
حتى ألقيوها في ذلك العجين ، وتبعها الفرس حتى تورط في العجين وبقيا فيه
جميعاً . وخرج قوم عكرمة يصيحون في العسكر ، يا معشر المسلمين أدركوا فرس
حوشب فقد غرق في خميرة عكرمة . فخرج الناس تعجباً من ذلك أن تكون خميرة

(١) « الأغاني » ج ٨ ص ٧٦ - ٧٧ .

(٢) الرمكة : الفرس .

يعرق فيها فرس ، فلم يبق في العسكر أحد إلا ركب ينظرُ وجاءوا إلى الفرس وهو غريق في العجين ما يبين منه إلا رأسه وعنقه ، فما أخرج إلا بالعمد والحبال ، وغلب عليه عكرمة وافتضح حوشب فقال العديل بن الفرخ يمدحهما ويفخر بهما :

وعكرمة الفيّاضُ فينا وحوشبُ هما فتيا الناس اللذا لم يغمرا

هما فتيا الناس اللذا لم ينالهما رئيسٌ ولا الأقيالُ من آلِ حمير^(١)

قال : وفي حوشب يقول الشاعر :

وأجودُ بالمال من حاتمٍ وأنحرُ للجزرِ من حوشب^(٢)

زهو الصعاليك

كانت الصعلكة ناحية من نواحي المجتمع العربي القديم ، وكان في الصعاليك شعراء وأصحاب مآثر ، فإم يغفل عنهم أئبر الفرج عند تصويره المجتمع . وهذه لمحة من لمحات الصعلكة :

قال المدائني : وحدّثنى أبو الهيثم قال : اجتمع مالك بن الريب وأبو حردبة وشيظاظ يوماً فقالوا : تعالوا نتحدّث بأعجب ما عملناه في سرقتنا ، فقال أبو حردبة : أعجب ما صنعتُ وأعجب ما سرقْتُ أنى صحبت رفقةً فيها رجلٌ على رَحْلٍ فأعجبني ، فقلت لصاحبي : والله لأسرقنَّ رحله ثم لا رضيت أو آخذ عليه جُعالة^(٣) . فرمقته حتى رأيته قد خفق برأسه فأخذت بخطام جملة فقدته وعدلت به عن الطريق ، حتى إذا صيرته في مكانٍ لا يُغاثُ فيه إن استغاث أنحت البعير وصرعته فأوثقت يده ورجله وقدت الجمل فغيبته ثم رجعت إلى الرفقة وقد

(١) الأقيال : جمع قيل وهو الرئيس والملك من ملوك حمير .

(٢) « الأغاني » ج ٢٠ ص ١٨ - ١٩ .

(٣) الجعالة : الأجر .

فقدوا صاحبهم فهم يسترجعون^(١) فقلت : ما لكم ؟ فقالوا : صاحب لنا فقدناه ،
فقلت : أنا أعلمُ الناسَ بأثره ، فجعلوا لي جعالة فخرجت بهم أتبع الأثر حتى
وقفوا عليه فقالوا : مالك ! قال : لا أدري نعت فانتبهت لخمسين فارساً قد
أخذوني فقاتلتهم فغلبوني . قال أبو حردبة : فجعلت أضحك من كذبه ،
وأعطوني جعالتى وذهبوا بصاحبهم . (وأعجب ما سرقت) أنه مرّ بى رجل معه
ناقة وجمل ، وهو على الناقة فقلت لأخذنّهما جميعاً ، فجعلت أعارضه وقد رأيته
خفق برأسه ، فدرتُ فأخذتُ الجمل فخللته وسقته فعينته فى القصيم ، وهو الموضع
الذى كانوا يسرقون فيه ، ثم انتبه فالتفت فلم يرَ جملة ، فنزل وعقل راحلته
ومضى فى طلب الجمل ، ودرت فخللت عقل ناقته وسقتها ، فقالوا لأنى حردبة :
ويحك فحتمّ تكون هكذا ؟ قال اسكتوا فكم أنكم بى وقد تدت واشتريت فرساً
وخرجت ، فبينما أنا واقفٌ إذ جاءنى سهم كأنه قطعة رشاء^(٢) فوقع فى نحري
فمت شهيداً (قال) فكان كذلك : تاب وقدم البصرة فاشترى فرساً وغزا الروم
فأصابه سهم فى نحره فاستشهد . ثم قالوا لشظاظ : أخبرنا أنت بأعجب ما أخذت
فى لصوصيتك ورأيت فيها ، فقال : نعم ، كان فلان رجل من أهل البصرة له
بنت عمّ ذات مالٍ كثير ، وهو وليّها وكانت له نسوة فأبت أن تتزوجه فحلف
أن لا يزوّجها من أحدٍ ضاراً لها ، وكان يخطبها رجل غنىّ من أهل البصرة
فحرضت^(٣) عليه وأبى الآخر أن يزوجه منه ، ثم إن ولىّ الأمر حجّ حتى إذا
كان بالدو^(٤) على مرحلة من البصرة حذاءها قريب منه جبل يقال له سنام ، وهو

(١) أى يقولون : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٢) الرشاء : الحبل .

(٣) حرضت : حزنت .

(٤) الدو : الصحراء .

منزل الرفاق إذا صدرت أو وردت مات الولى فدفن براية وشيّد على قبره فتزوجت الرجل الذى كان يخطبها ، قال شِظاظ : وخرجت رفقةً من البصرة معهم برّ ومتاع فتبصرتهم وما معهم واتبعتهم حتى نزلوا ، فلما ناموا بيّتهم وأخذت من متاعهم ، ثم إن القوم أخذوني وضربوني ضرباً شديداً وجرّوني .

(قال) وذلك فى ليلة قرّة وسلبوني كل قليل وكثير فتركونى عرياناً وتماوتُ لهم ، وارتحل القوم فقلت : كيف أصنع ، ثم ذكرت قبر الرجل فأتيته فبرزت لوحة ثم احتفرت فيه سرّاً فدخلت فيه ثم سدّدت علىّ باللوح وقلت : لعلّى الآن أدفأ فأتابعهم .

(قال) : ومرّ الرجل الذى تزوج بالمرأة فى الرفقة ، فمرّ بالقبر الذى أنا فيه فوقف عليه وقال لرفيقه : والله لأنزلن إلى قبر فلان حتى أنظر هل يحى الآن بضع فلانة ، قال شِظاظ : فعرفت صوته فقلعت اللوح ثم خرجت عليه بالسيف من القبر وقلت : بلى وربّ الكعبة لأحمينّها . فوقع والله على وجهه مغشياً عليه لا يتحرّك ولا يعقل ، فجلست على راحلته وعليها كل أداة وثياب ونقدٍ كان معه ، ثم وجهتها قصد مطلع الشمس هارباً من الناس فنجوت بها فكنت بعد ذلك أسمعهم يحدث الناس بالبصرة ويحلف لهم أن الميت الذى كان منعه من تزوج المرأة خرج عليه من قبره بسكبه^(١) وكفنه فبقى يؤمّه ثم هرب منه والناس يعجبون منه ، فعاقلهم يكذبّه ، والأحق منهم يصدقه ، وأنا أعرف القصة فأضحك منه كلّمتعجب ، قالوا : فزِدْنا قال : فأنا أزيدكم أعجب من هذا : إني لأمشى فى الطريق أبتغى شيئاً أسرقه فلا والله ما وجدت شيئاً قال : وشجرة ينام من تحتها الرّكبان بمكان ليس فيه ظل غيرها ، وإذا أنا برجل يسير على حمار

له ، فقلت له : أسمع ؟ قال : نعم ، قلت : إن المقييل الذي تريد أن تقيله
يخسف بالدواب فيه فاحذره ، فلم يلتفت إلى قولي .

(قال) ورمقه حتى إذا نام أقبلت على حماره فاستقته حتى إذا برزت به
قطعت طرف ذنبه وأذنيه ، وأخذت الحمار فخبأته . وأبصرته حين استيقظ من
نومه فقام يطلب الحمار ويقفوا أثره ، فبينما هو كذلك إذ نظر إلى طرف ذنبه فقال :
لعمرى لقد حذرت لو نفعني الحذر ، واستمر هارباً خوف أن يخسف به ، فأخذت
جميع ما بقي من رحله فحملته على الحمار وأستمر فألحق بأهلى .

قال (أبو الهيثم) ثم صلب الحجاج رجلاً من الشراة بالبصرة وراح عشيّاً
لينظر إليه فإذا برجل يازأه مقبل بوجهه عليه فدنا منه فسمعه يقول للمصلوب :
طال ما ركبت فأعقب^(١) . فقال الحجاج : من هذا ؟ قالوا هذا شيطان اللص
قال : لا جرم والله ليعقبنك . ثم وقف وأمر بالمصلوب وأنزل و صلب شيطاناً
مكانه .^(٢)

(١) أعقب : اجعل غيرك مكانك .

(٢) « الأغاني » ج ١٩ ص ١٦٧ - ١٦٩ .

بدوى فى عرس

وصف أبو الفرج الأصمباني فى هذه القطعة أشياء كثيرة : وصف التمرية وحالات البدوى والطعام والشراب والسكر وآلات الغناء . وقد ظهرت براعة أبى الفرج فى وصف حالات البدوى النفسية وفى وصف مكره واهتدينا إلى خصائص لغته ، وأهم هذه الخصائص صب اللفظ فى مواضعه فهو يميل إلى استعمال الألفاظ على حقيقتها وإلى استعمال الصفات الخاصة وهذا كله مما يزيد فى وضوح الوصف .

(أخبرنى) الحسن بن على الخفاف قال : حدثنا محمد بن القاسم قال : حدثنى الفضل بن العباس الهاشمى من ولد قُثم بن جعفر بن سليمان عن أبيه قال : كان ناهض بن ثومة الكلابى يقد على جدى قُثم فيمدحه ويصله جدى وغيره . وكان بدوياً جافياً كأنه من الوحش ، وكان طيب الحديث فحدثه يوماً أنهم انتجعوا ناحية الشام ، فقصد صديقاً له من ولد خالد بن يزيد بن معاوية كان ينزل حلب فإذا نزل نواحيها أتاه فمدحه وكان برّاً به ، قال : فمررت بقرية يقال لها قرية بكر بن عبد الله الهلالى ، فرأيت دوراً متباعدة وخصاصاً^(١) قد ضمّ بعضها إلى بعض ، وإذا بها ناس كثيرون مقبلون ومدبرون ، عليهم ثياب تحكى ألوان الزهر . فقلت فى نفسى : هذا أحد العيدين الأضحى أو الفطر ، ثم تاب إلى ما عزب^(٢) عن عقلى ، فقلت خرجت من أهلى فى بادية البصرة فى صفر وقد مضى العيدان قبل ذلك ، فما هذا الذى أرى ؟ فبينما أنا واقف متعجب أتانى رجل فأخذ بيدي فأدخلنى داراً قوراء^(٣) وأدخلنى منها بيتاً قد نُجِّدَ فى وجهه فُرُش ومهدت ، وعليها شاب ينال فروع شعره من منكبيه والناس حوله سباطان ، فقلت فى نفسى :

(١) الخصاص : جمع الحص وهو البيت من التمسك .

(٢) عزب : غاب وذهب .

(٣) قوراء : واسعة .

هذا الأمير الذي حُكي لنا جلوسه على الناس وجلوس الناس بين يديه ، فقلت وأنا ماثل بين يديه : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، ف جذب رجل بيدي وقال : اجلس فإن هذا ليس بأمرير . قلت : فما هو ؟ قال : عروس . فقلت : وا ثكل أماه ! لربّ عروس رأيته بالبادية أهون على أهله . فلم أنشب أن دخل الرجال يحملون هنات ^(١) مدوّرات . أمّا ما خفّ منها فيحمل حملاً ، وأمّا ما كبر وثقل فيدحرج . فوَضِع ذلك أمامنا ، وتحلّق ^(٢) القوم عليه حلقاً ، ثم أتينا بخرق بيض فألقيت بين أيدينا فظننتها ثياباً وهممت أن أسأل القوم منها خرقاً أقطعها قميصاً ، وذلك أني رأيت نسجاً متلاحماً لا يبين له سدّى ولا لحمة ، فلما بسطه القوم بين أيديهم إذا هو يتمزق سريعاً ، وإذا هو فيما زعموا صنف من الخبز لا أعرفه ، ثم أتينا بطعامٍ كثير بين حلو وحامض وحر وبارد فأكثر منه ، وأنا لا أعلم ما في عقبه من التخمّ والبشّم ، ثم أتينا بشراب أحمر في عسّاس ^(٣) . فقلت : لا حاجة لي فيه ، فإني أخاف أن يقتلني . وكان إلى جانبي رجلٌ ناصح لي أحسن الله جزاءه ، فإنه كان ينصح لي من بين أهل المجلس فقال : يا أعرابي إنك قد أكثرت من الطعام وإن شربت الماء همي ^(٤) بطنك . فلما ذكر البطن تذكرت شيئاً أوصاني به أبي والأشياخ من أهلي قالوا : لا تزال حياً ما كان بطنك شديداً ، فإذا اختلف ^(٥) فأوص . فشربت من ذلك الشراب لأتداوى به ، وجعلت أكثر منه فلا أمل شرّبه ، فتداخلى من ذلك صلف لا أعرفه من نفسي ، وبكاء لا أعرف سببه ولا عهد لي بمثله ، واقتدار على أمرٍ

(١) الهنات : الأشياء اليسيرة .

(٢) تحلّقوا : جلسوا حلقات .

(٣) العسّاس : الأقذاح العظام الواحد عس .

(٤) همي : سقط .

(٥) -اختلف : لان بطنه .

أظن معه أنى لو أردت نيل السقف لبلغته ، ولو ساورت الأسد لقتلته ، وجعلت
التفت إلى الرجل الناصح لى فتحدثنى نفسى بهتم أسنانه ، وهشم أنفه . . .
فبينما نحن كذلك إذ هجم علينا شياطين أربعة ، أحدهم قد علّق فى عنقه جعبة^(١)
فارسية مسنّجة^(٢) الطرفين دقيقة الوسط مشبوحة بالخيوط شبحاً منكراً ، ثم بدر
الثانى فاستخرج من كمه هنة سوداء فوضعها فى فيه وصوّت بها صوتاً لم أسمع وبيت
الله أعجب منه فاستتم بها أمرهم ، ثم حرّك أصابعه على أحجرٍ فيها فأخرج منها
أصواتاً ليس كما بدأ ، ولكنه أتى منها لما حرك أصابعه بصوت عجيب متلائم
متشاكل بعضه لبعض كأنه علم الله ينطق ، ثم بدا ثالث كز^(٣) مقيتٌ عليه
قميص وسخ ، معه مرأتان . فجعل يصفق بهما بيديه إحداها على الآخرة فخالطت
بصوته ما يفعله الرجلان ، ثم بدا رابع عليه قميص مصون وسراويل مصون ،
وخفّان أخذمان^(٤) لا ساق لواحد منهما ، فجعل يقفز كأنه يثب على ظهور
العقارب ، ثم التّبّط به على الأرض ، فقلت معتوه ورب الكعبة ، ثم ما برح
مكانه حتى كان أغبط القوم عندى ، ورأيت القوم يحذفونه بالدرهم حذفاً منكراً
ثم أرسل النساء إلينا أن أمتعنونا من لهوكم هذا فبعثوا بهم وجعلنا نسمع أصواتهن
عن بعد ، وكان معنا فى البيت شاب لا آبه له فعلت الأصوات بالثناء عليه والدعاء
فخرج فجاء بخشبة عيناها فى صدرها ، فيها خيوط أربعة فاستخرج من خلالها عوداً
فوضعه خلف أذنه ثم عرك أذنها وحركها بخشبة فى يده فنطقت ورب الكعبة ،
وإذا هى أحسن قينة رأيتها قط ، وغنى فأطربنى حتى استخفنى من مجلسى ، فوثبت

(١) الجعبة : كنانة الشباب .

(٢) مسنّجة : مخططة .

(٣) كز : قبيح .

(٤) أخذمان : مقطعان .

فجلست بين يديه وقلت : بأبي أنت وأُمي ! ما هذه الدابة فليست أعرفها للأعراب
وما أراها خلقت إلا قريباً ! فقال : هذا البربط^(١) . فقلت : بأبي أنت وأُمي !
فما هذا الخيط الأسفل ، قال : الزير ، قلت : فالذي يليه ، قال : المثني ، قلت :
فالأعلى ، قال : البم^(٢) ، فقلت : آمنت بالله أولاً وبك ثانياً وبالبربط ثالثاً
وبالbm رابعاً . قال : فضحك أبي والله حتى سقط ، وجعل ناهض يعجب من
ضحكه . ثم كان بعد ذلك يستعيد هذه الحديث ويطوف به إخوانه فيعيده
ويضحكون منه^(٣) .

طمع أعرابي

هذه رواية هزلية ركز أبو الفرج أبطاها تركيزاً لا نستطيع أن نجد أشد إحكاماً منه ، ولم تكن
براعته في تدريج حوادث الرواية بأقل من براعته في تركيز أبطاها ، فلا يكاد القارئ يفرغ من
مفاجأة المشهد الأول حتى ينتقل إلى مفاجأة أقوى ، وعلى هذا الشكل يظل ذهنه متعلماً بالرواية من أول
مشاهدها إلى آخرها .

وقد تجلى فن أبي الفرج الأصهباني في هذه الرواية ، فقد اجتمع له من الألفاظ المحسوسة والتشبيهات
الناطقة ما أعانه على دقة التصوير ، والشئ الغالب على الرواية إنما هو روح السخرية .

أخبرني محمد بن مزيد قال : حدثنا عمر بن شبة قال : حدثنا ابن زباله
قال : حدثنا ابن ربيح راوية بن هرمة عن أبيه قال : كان أبان بن عثمان من
أهزل الناس وأعشهم وبلغ من عبثه أنه كان يحىء بالليل إلى منزل رجل في
أعلى المدينة له لقب يغضب منه فيقول له : أنا فلان ابن فلان ، ثم يهتف بقلبه
فيشتمه أقبح شتم وأبان يضحك ، فبينما نحن ذات يوم عنده وعنده أشعب إذ

(١) البربط : النعود .

(٢) البم : التوتر الغليظ .

(٣) « الأغاني » ج ١٢ ص ٣٣ - ٣٥ .

أقبل أعرابي ومعه جمل له ، والأعرابي أشقر أزرق أزعر^(١) غضوب ، يتلظى^(٢) كأنه أفعى ويتبين الشر في وجهه ، ما يدنو منه أحد إلا شتمه ونهره ، فقال أشعب لأبان : هذا والله من البادية ، ادعوه . فدعى وقيل له : إن الأمير أبان بن عثمان يدعوك ، فأتاه فسلم عليه ، فسأله أبان عن نفسه فانتسب له فقال : حيّاك الله يا خالي . حبيب ازداد حبّاً ، فجلس فقال له : إني في طلب جمل مثل جملك هذا منذ زمان فلم أجده كما اشتهى بهذه الصفة وهذه القامة واللون والصدر والورك^(٣) والأخفاف ، فالحمد لله الذي جعل ظفري به من عند من أحبه ، أتبيعه ؛ فقال : نعم أيها الأمير . فقال . إني قد بذلت لك به مائة دينار ، وكان الجمل يساوي عشرة دنائير ، فطمع الأعرابي وسراً وانتفخ وبان السرور والطمع في وجهه ، فأقبل أبان على أشعب ثم قال له : ويلك يا أشعب إن خالي هذا من من أهلك وأقاربك يعني الطمع فأوسع له مما عندك فقال له : نعم ، بأبي أنت وزيادة ، فقال له أبان : يا خالي إنما زدتك في الثمن على بصيرة ، وإنما الجمل يساوي ستين ديناراً ولكن بذلت لك مائة لقلة النقد عندنا ، وإني أعطيك به عروضاً^(٤) تساوي مائة ، فزاد طمع الأعرابي وقال : قد قبلت ذلك أيها الأمير ، فأمر إلى أشعب فأخرج شيئاً مغطى فقال له : أخرج ما جئت به ، فأخرج جرد عمامة خز خلق^(٥) تساوي أربعة دراهم فقال له : فومها يا أشعب ، فقال له : عمامة الأمير تعرف به ويشهد فيها الأعياد والجمع ويلقى فيها الخلفاء ،

(١) شعر أزعر : قليل متفرق .

(٢) يتلظى : يتلهب .

(٣) الورك والورك : ما فوق الفخذ .

(٤) العروض : جمع العرض وهو المتاع وكل شيء سوى الثقلين .

(٥) الخلق : البالي للمذكر والمؤنث . الجرد : الخلق .

خمسون ديناراً فقال : ضعها بين يديه ، وقال لابن ربيع أثبت قيمتها ، فكتب ذلك ووضعت العمامة بين يدي الأعرابي فكد يدخل بعضه في بعض غيظاً ولم يقدر على الكلام ، ثم قال : هات قلنسوتي ، فأخرج قلنسوة طويلة خلقة قد علاها الوسخ والدهن وتخرقت تساوي نصف درهم ، فقال : قوم فقال : قلنسوة الأمير تعلقو هامته ويصلي فيها الصلوات الخمس ويجلس للحكم ، ثلاثون ديناراً ، فقال : أثبت ، فأثبت ذلك ، ووضعت القلنسوة بين يدي الأعرابي فتربّد^(١) وجهه وجحظت عيناه^(٢) وهمّ بالوثوب ثم تماسك وهو متقلقل ، ثم قال لأشعب : هات ما عندك فأخرج خفين خلقين قد نقبا^(٣) وتقسرا وتفتقا فقال له : قوم ، فقال خفا الأمير يطأ بهما الروضة ويعلوهما منبر النبي صلى الله عليه وسلم ، أربعون ديناراً ، فقال ضعهما بين يديه ، فوضعهما ، ثم قال للأعرابي : اضمم إليك متاعك ، وقال لبعض الأعوان : اذهب فخذ الجمل ، وقال لآخر : امض مع الأعرابي فاقبض منه ما بقي لنا عليه من ثمن المتاع ، وهو عشرون ديناراً ، فوثب الأعرابي فأخذ القماش^(٤) فضرب به وجوه القوم لا يألو في شدة الرمي به ، ثم قال له : أتدرى أصلحك الله من أي شيء أموت قال : لا ، قال لم أدرك أباك عثمان فأشترك والله في دمه إذ ولد مثلك ، ثم نهض مثل المجنون حتى أخذ برأس بعيره . وضحك أبان حتى سقط كل من كان معه ، وكان الأعرابي بعد ذلك إذا لقي أشعب يقول له : هلم إلى يا ابن الخبيثة حتى أ كافئك على تمويمك المتاع يوم قوم فيهرب أشعب منه^(٥) .

(١) تربد : تغير .

(٢) جحظت عينه : خرجت مقملتها .

(٣) نقباً : رتقاً .

(٤) القماش : ما على وجه الأرض من فتنات الأشياء .

(٥) « الأغاني » ج ١٧ ص ١٠٢ - ١٠٣ .

عفو أمير

هذه قصة صغيرة ، عرضت حوادثها في أوضح معرض ، كل حادثة منها مربوطة بعلمتها وسببها ، ورتبت ترتيباً متقناً ، رواها أبو الفرج على شكل مستند ، لم يفاجئ القارئ مفاجأة بعفو الأمير من أول القصة وإنما استدرجه إلى ذلك استدراجاً حتى يبقى ميله إلى معرفة الخاتمة معلوماً . صورت هذه القصة أمراً روحانياً وهو العفو والمروءة ، ولذلك نجد فيها الألفاظ المجردة . أما الألفاظ المحسوسة فهي قليلة ، فلم يلجأ فيها أبو الفرج إلى اللغة الشعرية وإنما لجأ إلى تنطيع عباراته والأسلوب المتطوع هو الذي يصاح للقصة الصغيرة :

(أخبرني) عمي قال : حدثني أبو جعفر بن الدُّهقان^(١) النديم قال : حدثني محمد بن الفضل الخراساني وكان من وجوه قواد طاهر وابنه عبد الله وكان أديباً عاقلاً فاضلاً قال :

لما قال عبد الله بن طاهر قصيدته التي يفخر فيها بماثر أبيه وأهله ، ويفخر بقتلهم المخلوع ، عارضه محمد بن يزيد الأموي الحصني وكان رجلاً من ولد مسالمة ابن عبد الملك ، فأفرط في السب ، وتجاوز الحد في قبح الرد وتوسط بين القوم وبين بني هاشم فأرْبى في التوسط والتعصب فكان فيما قال فيه :

يا ابنَ بيتِ النارِ موقدها ما لحاذيه سراويلُ^(٢)

مَنْ حَسِينُ مَنْ أبوكَ وَمَنْ مصعبٌ غالتكم غولُ^(٣)

نسبٌ في الفخرِ مؤتشبٌ وأبواتُ أراذيلُ^(٤)

قاتلُ المخلوعِ مقتولُ ودمُ المقتولِ مطلولُ^(٥)

(١) الدهقان : بكسر الدال وضربها زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم .

(٢) حاذيه : من حذى الرجل نعلًا ألبسه إياها .

(٣) غاله : أهلكه .

(٤) مؤتشب : غير صريح في النسب . الأراذيل : من الرذيل وهو الخسيس .

(٥) مطلول : لا يثار به .

وهي قصيدةٌ طويلة . فلما ولي عبد الله مصر ، وردَّ إليه تدبير أمر الشام علم الحصني أنه لا يفلت منه إن هرب ، ولا ينجو من يده حيث حلَّ ، فثبت في موضعه ، وأحرز حرمه ، وترك أمواله ودوابه وكل ما كان يملكه في موضعه ، وفتح باب حصنه وجلس عليه ، ونحن نتوقع من عبد الله بن طاهر أن يوقع به . فلما شارفنا بلده ^(١) وكنا على أن نصبحه ، دعاني عبد الله الليل فقال لي : بيتٌ عندي الليلة وليكن فرسك معدًّا عندك لا يردُّ ففعلت ، فلما كان في السحر أمر غلماناه وأصحابه أن يرحلوا حتى تطلع الشمس ، وركب في السحر وأنا وخمسة من خواص غلماناه ، فسار حتى صبح الحصني فرأى بابه مفتوحاً وراه جالساً مسترسلاً فقصده وسلم عليه ونزل عنده ، وقال له : ما أجلسك ههنا وجعلك على أن فتحت بابك ولم تتحصن من هذا الجيش المقبل ، ولم تتنحَّ عن عبد الله بن طاهر مع ما في نفسه عليك وما بلغه عنك ، فقال : إن ما قلت لم يذهب عليَّ ولكني تأملت أُمري وعلمت أني أخطأت خطيئةً حملني عليها نزقُ الشباب وغرَّةُ الحداثة ، وأنى إن هربت منه لم أفته فباعدت البنات والحرم ، واستسلمت بنفسى وكل ما أملك ، فإنَّا أهلُ بيتٍ قد أسرع القتل فينا ، ولي بمن مضى أسوةٌ فيني أثق بأن الرجل إذا قتلني وأخذ مالي شفى غيظه ، ولم يتجاوز ذلك إلى الحرم ولا له فيهنَّ أرب ، ولا يوجب جرمي إليه أكثر مما بذلته قال : فوالله ما اتقاه عبد الله إلا بدموعه تجري على لحيمته ، ثم قال له : أتعرفني قال : لا والله ، قال : أنا عبد الله ابن طاهر ، وقد أمَّن الله تعالى روعتك ^(٢) ، وحقنَ دمك ، وصانَ حرمك ، وحرس نعمتك ، وعفا عن ذنبك ، وما تعجَّلت إليك وحدي إلا لتأمن من قبل هجوم الجيش ، ولئلا يخالط عفوى عنك روعة تلحقك . فبكي الحصني وقام فقبَّلَ

(١) شارف بلده : علاه .

(٢) الروعة : الفرعة .

رأسه وضحه عبد الله وأدناه ثم قال له : أمّا فلا بدّ من عتاب يا أخى ، جعلنى الله فداك ، قلت شعراً فى قومى أخز بهم لم أطعن فيه على حسبك ولا ادّعت فضلاً عليك ، وفخرت بقتل رجل هو وإن كان من قومك فهم القوم الذين ثأرك عندهم فكان يسمعك السكوت أو إن لم تسكت لا تغرق ولا تسرف فقال :

أيها الأمير قد عفوت فاجعل العفو الذى لا يخلطه تريب^(١) ولا يكدر صفوه تأنيب . قال . قد فعلت ، فقم بنا ندخل إلى منزلك حتى نوجب عليك حقاً بالضيافة ، فقام مسروراً فأدخلنا فأتى بطعام كان قد أعدّه فأكلنا وجلسنا نشرب فى مستشرف له ، وأقبل الجيش فأمرنى عبدالله أن أتلقّاهم فأرحلهم ولا ينزل أحد منهم إلا فى المنزل وهو على ثلاثة فراسخ ، ثم دعا بدواة فكتب له بتسويغه^(٢) خواجه ثلاث سنين وقال له : إن نشطت لنا فالحق بنا وإلا فأقم بمكانك فقال :

فأنا أتجهز وألحق بالأمير ففعل فلحق بنا بمصر ، ولم يزل مع عبدالله لا يفارقه حتى رحل إلى العراق فودّعه وأقام ببلده .^(٣)

تطفل إسحق الموصلى

نشهد فى هذه القطعة ، وفى القطعة التى تليها ، كما شهدنا فى القطع السابقة ، براعة أبى الفرج فى التخصّص والرواية ، فالعرض خفيف الظل ، والعقدة مشوقة والحاقمة لا تكشف سترها إلا فى نهاية المطاف ، والأسلوب رائع يملك على القراء ألبابهم .

أخبرنا محمد بن مزيد قال : حدّثنا حماد بن إسحق عن أبيه أنه حدّثه قال :

غدوت يوماً وأنا ضجّيرٌ من ملازمة دار الخلافة والخدمة فيها ، فخرجتُ وركتُ

(١) التريب : اللوم والتعيير بالذنب .

(٢) التسويغ : التجويز .

(٣) « الأغاني » ج ١١ ص ١٢ - ١٣ .

بُكَرَةً وَعَزَمْتُ عَلَى أَنْ أَطُوفَ الصَّحْرَاءَ وَأَتَفَرِّجَ ، فَقُلْتُ لِعَلْمَانِي إِنْ جَاءَ رَسُولُ
 الْخَلِيفَةِ أَوْ غَيْرِهِ فَعَرِّفُوهُ أُنِّي بَكَرْتُ فِي بَعْضِ مَهَمَّاتِي ، وَأَنْكُمْ لَا تَعْرِفُونَ أَيْنَ تَوَجَّهْتُ
 وَمَضَيْتُ وَطَفْتُ مَا بَدَأَ لِي ، ثُمَّ عَدْتُ وَقَدَحِمِي النَّهَارَ ، فَوَقَفْتُ فِي الشَّارِعِ الْمَعْرُوفِ
 بِالْحَرَمِ ، فِي فَنَاءٍ تُخَيِّنُ الظِّلَّ وَجَنَاحَ رَحْبٍ عَلَى الطَّرِيقِ لِأَسْتَرِيحَ ، فَلَمْ أَلْبِثْ أَنْ
 جَاءَ خَادِمٌ يَقُودُ حِمَاراً فَارَهَاً عَلَيْهِ جَارِيَةٌ رَاكِبَةٌ ، تَحْتَهَا مَنَدِيلٌ دَبِيقٌ ، وَعَلَيْهَا مِنْ
 اللَّبَاسِ الْفَاخِرِ مَا لَا غَايَةَ بَعْدَهُ ، وَرَأَيْتُ لَهَا قَوَاماً حَسَنًا وَطَرَفًا فَاتِرًا وَشِمَائِلَ حَسَنَةً
 فَخَرَصْتُ^(١) عَلَيْهَا أَنَّهَا مَغْنِيَّةٌ ، فَدَخَلَتِ الدَّارَ الَّتِي كُنْتُ وَاقِفًا عَلَيْهَا ، ثُمَّ لَمْ أَلْبِثْ
 أَنْ جَاءَ رَجُلَانِ شَابَانِ جَمِيلَانِ فَاسْتَأْذَنَّا فَأَذِنَ لهُمَا ، فَتَزَلَّا وَنَزَلْتُ مَعَهُمَا وَدَخَلْتُ ،
 فَظَنَّا أَنَّ صَاحِبَ الدَّارِ دَعَانِي ، وَظَنَّ صَاحِبُ الدَّارِ أَنِّي مَعَهُمَا ، فَجَلَسْنَا وَأَتَى بِالطَّعَامِ
 فَأَكَلْنَا وَبِالشَّرَابِ فَوَضَعُ ، وَخَرَجَتِ الْجَارِيَةُ فِي يَدِهَا عُودٌ فَغَنَّتْ وَشَرَبْنَا ،
 وَقَمْتُ قَوْمَةً . وَسَأَلَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ الرَّجُلَيْنِ عَنِّي فَأَخْبَرَاهُ أَنَّهُمَا لَا يَعْرِفَانِي ، فَقَالَ :
 هَذَا طِفْلِي ، وَلَكِنَّهُ ظَرِيفٌ ، فَأَجْمَلُوا عَشْرَتَهُ ؛ وَجِئْتُ فَجَلَسْتُ وَغَنَّتِ الْجَارِيَةُ فِي
 الْحَنِّ لِي :

ذَكَرْتُكَ أَنْ مَرَّتْ بِنَا أُمُّ شَادِنِ أَمَامِ الْمَطَايَا تَشْرَبُ وَتَسْنَحُ
 مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ الرَّمْلَ أَدْمَاءَ حَرَّةَ شِعَاعُ الضَّحَى فِي مَتْنِهَا يَتَوَضَّحُ
 وَأَدْبَهُ أَدَاءٌ صَالِحًا وَشَرِبْتُ ثُمَّ غَنَّتْ أَصْوَاتًا شَتَّى ، وَغَنَّتْ فِي أَضْعَافِهَا مِنْ
 صَنَعَتِي :

الطَّلُولُ الدَّوَارِسُ فَارَقَتْهَا الْأَوَانِسُ
 أَوْحَشْتُ بَعْدَ أَهْلِهَا فَهِيَ قَفْرٌ بِسَابِسُ

فكان أمرها فيه أصلح منه في الأول ، ثم غنّت أصواتاً من القديم والحديث
وغنّت في أثنائها من صنعتي :

قل لمن صدّ عاتبا ونأى عنك جانباً
قد بلغت الذي أرد ت وإن كنت لاعباً

فكان أصلح ما غنّته ، فاستعدته منها لأصححه لها ، فأقبل على رجل من
الرجلين وقال : ما رأيت طفيلياً أصفق وجهاً منك ! لم ترض بالتطفيل حتى
اقتربت ، وهذا غاية المثل : طفيلي مقترح . فأطرقت ولم أجبه ، وجعل صاحبه
يكفه عني فلا يكف . ثم قاموا للصلاة وتأخرت قليلاً فأخذت عود الجارية ثم
شدت طبقته وأصلحته إصلاحاً محكماً وعدت إلى موضعي فصليت وعادوا . ثم
أخذ ذلك الرجل في عر بدته على وأنا صامت ، ثم أخذت الجارية العود فجسّته
وأنكرت حاله وقالت : مَنْ مَسَّ عودي ؟ قالوا : ما مسّه أحد ، قالت : بلى والله !
لقد مسّه حاذق متقدم وشدّ طبقته وأصلحه إصلاحاً متمكن من صناعته ، فقلت
لها : أنا أصلحته . قالت : فبالله خذه واضرب به ، فأخذته وضربت به مبدأً
صحيحاً ظريفاً عجيباً صعباً فيه نقرات محرّكة ، فما بقي أحد منهم إلا وثب وجلس
بين يدي ثم قالوا : بالله يا سيدنا أغنّي ؟ فقلت : نعم ، وأعرفكم نفسي ، أنا إسحق
ابن إبراهيم الموصلي ، والله إنّي لأتبه على الخليفة إذا كلني ، وأنتم تسمعونني
ما أكره منذ اليوم لأنّي تملّحت معكم ، فوالله لا نطق بحرف ولا جلست معكم
حتى تخرجوا هذا المعربد المقيت الغث ، فقال له صاحبه : من هذا حذرت عليك
فأخذ يعتذر فقلت : والله لا نطق بحرف ولا جلست معكم حتى يخرج ، فأخذوا
بيده فأخرجوه وعادوا ، فبدأت وغنّيت الأصوات التي غنّتها الجارية من صنعتي
فقال لي الرجل : هل لك في خصلة ؟ قلت : ما هي ؟ قال : تقيم عندي شهراً

والجارية والحمار لك مع ما عليها من حلى ، قلت : أفعل . فأقمت عنده ثلاثين يوماً لا يدرى أحد أين أنا ، والمأمون يطلبني في كل موضع فلا يعرف لى خبراً . فلما كان بعد ثلاثين يوماً أسلم إلى الجارية والحمار والخادم ، فحُتت بذلك إلى منزلى وركبت إلى المأمون من وقتي ، فلما رآني قال : إسحق ، ويحك ! أين أنت فأخبرته بخبري ، فقال : على بالرجل الساعة ، فدللتهم على بيته ، فأحضر ، فسأله المأمون عن القصة فأخبره ، فقال له : أنت رجل ذو مروءة ، وسبيلك أن تعاون عليها ، وأمر له بمائة ألف درهم ، وقال : لا تعاشرنَّ ذلك المعربد النذل البتة ، وأمر لى بخمسين ألف درهم ، وقال : أحضرني الجارية فأحضرتها فغتمته فقال لى : قد جعلت لها نوبة في كل يوم ثلاثاء تعنّيني وراء الستارة مع الجوارى ، وأمر لها بخمسين ألف درهم ، فربحتُ والله بتلك الركبة وأربحتُ^(١) .

دحمان والجارية والوليد

(أخبرني) وكيع عن أبي أيوب المديني إجازةً عن أبي محمد العامري الأويسى قال : كان دحمان جَمَلاً يكرى إلى المواضع ويتجر ، وكانت له مروءة . فبينما هو ذات يوم قد أكرى جماله وأخذ ماله إذ سمع رنةً ، فقام واتبع الصوت ، فإذا جارية قد خرجت تبكي فقال لها : أملكوك أنت ؟ قالت : نعم . فقال : لمن ؟ قالت : لامرأة من قريش ، وسمتها له . فقال : أتبيعك ؟ قالت : نعم . ودخلت إلى مولاتها فقالت : هذا إنسانٌ يشتريني . فقالت : ائذني له ، فدخل فسامها حتى استقرَّ أمر الثمن بينهما على مائتي دينار فنقدها إياها وانصرف بالجارية . قال دحمان فأقامت عندي مدة أطرح عليها وي طرح عليها معبد والأبجر ونظراؤهما من المغنّين ،

ثم خرجت بها بعد ذلك إلى الشام . وقد حذقت وكنت لا أزال إذا نزلنا أنزل الأكرياء ^(١) ناحية وأنزل معتزلاً بها ناحية في محل ، وأطرح على المحمل من أعبية الجمالين ، وأجلس أنا وهي تحت ظلها ، فأخرج شيئاً فنأكله ، ونضع ركة ^(٢) لنا فيها شراب فنشرب ونتغنى حتى نرحل . ولم نزل كذلك حتى قربنا من الشام . فبينما أنا ذات يوم نازلٌ وأنا ألقى عليها الحنى :

لو رَدَّ ذو شَفَقٍ حِمَامَ مَنِيَّةٍ لَرَدَدْتُ من عبد العزيز حِمَاماً
صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ من مستودعٍ جاورت رَمْساً في القبور وهاماً ^(٣)

(قال) فرددته عليها حتى أخذته واندفعت تغنيه ، فإذا أنا براكب قد طلع فسلم علينا فرددنا عليه السلام فقال : أتأذنوا ^(٤) لي أن أنزل تحت ظلِّكم هذا ساعة ! قلنا : نعم . فنزل وعرضتُ عليه طعامنا وشرابنا فأجاب ، فقدمنا إليه السفرة فأكل وشرب معنا واستعاد الصوت مراراً ثم قال للجارية : أتغنين لدحمان شيئاً . قالت نعم . قال فغنيتُ صوتاً من صنعته ، فغننته أصواتاً من صنعتي وغمرتُها أن لا تعرفه أني دحمان ، فطرب وامتلاً سروراً وشرب أقداحاً والجارية تُغنيه حتى قرب وقت الرحيل ، فأقبل عليّ وقال ، أتبيعني هذه الجارية فقلت : نعم . قال : بكم ؟ قلت كالعابث : بعشرة آلاف دينار . قال : قد أخذتها بها ، فهلمّ دواةً وقرطاساً ، فبحثته بذلك فكتب : ادفع إلى حامل كتابي هذا حين تقرأه عشرة آلاف دينار واستوص به خيراً وأعلمني بمكانه . وختم الكتاب ودفعه إليّ ثم قال : أتدفع إليّ الجارية أم تمضي بها معك حتى تقبض مالك .

(١) الأكرياء : جمع كرى وهو المستأجر .

(٢) الركة : إناء للماء .

(٣) الهام : جمع هامة وهو الرأس وهنا اسم لطائر يألف المقابر . والشعر لكثير يرثى

عبد العزيز بن مروان . وزعم بعض الرواة أن هذا الشعر لعبد الصمد بن علي الهشام يرثى ابناً له .

(٤) هكذا في الأصل .

فقلت بل أدفعها إليك . فحملها وقال : إذا جئت النجباء^(١) فسل عن فلان وادفع كتابي هذا إليه واقبض منه مالك . ثم انصرف بالجارية .

(قال) ومضيت فلما وردت النجباء سألت عن اسم الرجل فدللت عليه فإذا داره دار ملك ، فدخلت عليه ودفعت إليه الكتاب فقبله ووضعته على عينيه ، ودعا بعشرة آلاف دينار فدفعها إلى^(٢) وقال : هذا كتاب أمير المؤمنين ، وقال لي : اجلس حتى أعلم أمير المؤمنين بك ، فقلت له حيث كنت فأنا عبدك وبين يديك وقد كان أمر لي بأنزال^(٣) وكان بخيلاً فاغتنم ذلك فارتحلت وقد كنت أصبت بجملين وكانت عدة أجمالي خمسة عشر فصارت ثلاثة عشر .

(قال) وسأل عني الوليد فلم يدُر القهرمان أين يطلبني فقال له الوليد : عدّة جماله خمسة عشر جملاً فأردده إلى^(٢) فلم أوجد لأنه لم يكن في الرفقة من معه خمسة عشر جملاً ، ولم يعرف اسمي فيسأل عني .

(قال) وأقامت الجارية عنده شهراً لا يسأل عنها ، ثم دعاها بعد أن استبرئت وأصلح من شأنها ، فظلّ معها يومه حتى إذا كان في آخر نهاره قال لها : غنّيني لدحمان ، فغنّنت وقال لها : زيديني ، فزادت . ثم أقبلت عليه فقالت : يا أمير المؤمنين أو ما سمعت غناء دحمان منه ؟ قال : لا ، قالت : بلى والله ، قال : أقول لك لا ، فتقولين : بلى والله ، فقالت : بلى والله ، لقد سمعته ، قال : وما ذاك ؟ ويحك ! قالت : إن الرجل الذي اشتريتنى منه هو دحمان ، قال : أو ذلك هو ؟ قالت : نعم هو هو ، قال : فكيف لم أعلم ؟ قالت غمزني بأن لا أعلمك . فأمر فكتب إلى عامل المدينة بأن يحمل إليه دحمان فحمل فلم يزل عنده أسيراً^(٣)

(١) وقد تكون البخراء .

(٢) الأنزال : جمع نزل وهو العطاء .

(٣) وقد تكون أثيراً أى معزراً مكرمأ . « الأغاني » ج ٥ ص ١٣٥ - ١٣٦ .

المراجع

- الأغاني
لأبي الفرج الأصبهاني . الأجزاء : ١ و ٢ و ٥ - ٩ و ١١ و ١٢
و ١٤ - ٢١ (الطبعة القديمة) .
للمؤلف . دراسة الأغاني
مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصبهاني .
معجم الأدباء لياقوت . الجزء ١٣
لفيف من كتب الأدب والتاريخ

الفهرست

الفصل الأول

عصر أبي الفرج الأصبهاني

صفحة

١ - الحالة الاجتماعية والفكرية

٥

٢ - الحالة السياسية

٦

الفصل الثاني

أبو الفرج الأصبهاني في عصره

١ - حياة أبي الفرج الأصبهاني

٨

٢ - نشأته

١٠

٣ - تأثيره وتأثيره

١٠

٤ - صورته وأخلاقه

١٢

٥ - مشاركته في أحوال عصره :

١٦

أ - التشيع والقومية

١٦

ب - النقد والأدب

١٩

الفصل الثالث

جوانب أبي الفرج الأصبهاني

١ - آثار أبي الفرج الأصبهاني

٢١

٢ - أبو الفرج الأصبهاني الشاعر

٢٣

٣ - أبو الفرج الأصبهاني الناثر

٢٤

٢٤	.	.	.	.	.	.	.	.	.	أ - المؤرخ
٢٦	.	.	.	.	.	.	.	.	.	ب - الراوية والتاوص.
٢٧										٤ - فن أبي الفرج الأصبهاني
٣٠										٥ - تحليل قصة « عفو أمير »

الفصل الرابع

منتخبات من آثار أبي الفرج الأصبهاني

٣٨	١ - أبو الفرج الأصبهاني الشاعر :
٣٨	أ - الشاعر الوجداني :
٣٨	حكايية حال
٣٩	ب - الشاعر الوصاف :
٣٩	رثاء ديك
٤١	وصف الفأر والهر
٤٢	ج - الشاعر المداح :
٤٢	ميلاد المشتري
٤٢	عيد الفطر
٤٤	د - الشاعر الهجاء :
٤٤	أنا الملووم
٤٥	خمبة

٢ - أبو الفرج الأصبهاني الناثر :

[illegible]

٥٧	.	.	.	.	.	.	.	يوم أواره
٦٢	.	.	.	.	.	.	.	السيف الكريم
٦٤	.	.	.	.	.	.	.	ب - الناقد :
٦٤	.	.	.	.	.	.	.	أبو تمام
٦٨	.	.	.	.	.	.	.	البحترى
٦٩	.	.	.	.	.	.	.	ابن المعتز
٧١	.	.	.	.	.	.	.	ج - مصور المجتمع :
٧١	.	.	.	.	.	.	.	تسلط العامة على الخاصة
٧٣	.	.	.	.	.	.	.	عقلية العامة
٧٤	.	.	.	.	.	.	.	الغناء في دمشق
٧٥	.	.	.	.	.	.	.	الغناء في حمص
٧٧	.	.	.	.	.	.	.	مجالس ملوك غسان
٧٩	.	.	.	.	.	.	.	الأعشى والمخلق
٨٢	.	.	.	.	.	.	.	مباراة الأجواد
٨٣	.	.	.	.	.	.	.	زهر الصعاليك
٨٧	.	.	.	.	.	.	.	د - التقاص :
٨٧	.	.	.	.	.	.	.	بلوى في عرس
٩٠	.	.	.	.	.	.	.	طمع أعرابي
٩٣	.	.	.	.	.	.	.	عفو أمير
٩٥	.	.	.	.	.	.	.	تطفل إسحق الموصلی
٩٨	.	.	.	.	.	.	.	دحمان والحارية والوليد

المراجع
الفهرست

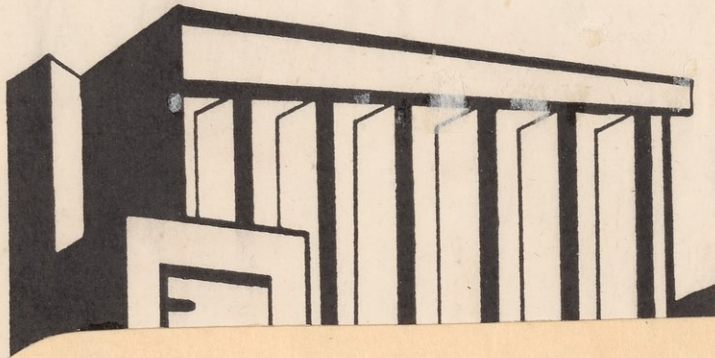
تم طبع هذا الكتاب على مطابع دار المعارف
في شهر فبراير (شباط) سنة ١٩٥٥

جبري، شفيق
أبو الفرج الأصبهاني

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01042355



892.71
A2195YdA